كتب دائرة المعارف الإسلامية

(١٥)

بغداد

بقلم

شترك ، السيد عبد الرزاق الحسني ، عبد العزيز الدوري

Streck & S. A. Hasani & A. A. Duri

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

ابراهيم خورشيد ، د. عبد الحميد يونس ، حسن عثمان

دار الكتاب اللبناني ـ مكتبة المدرسة

بغداد

دار الكتاب اللبناني   مكتبة المدرسة

طباعة - نشر - توزيع

الادارة العامة

الصنائع - مقابل مدخل الاذاعة اللبنانية
هاتف: ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ٣٤٩٢١٩
ص.ب: ٣١٧٦ - تلكس: LE٢٢٨٦٥
برقياً: كتالبنان - بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

وهذا هو الكتاب الخامس عشر من « كتب دائرة المعارف الإسلامية »، ويتناول بغداد قصبة الخلافة ودرّة المدائن الإسلامية التي كانت منارة للفكر والأدب والفن في القرون الوسطى، وكانت تشع منها أرقى ما بلغته الحضارة من نور يوم أن كان الغرب يسبح في دياجير الظلام.

وقد فصل الكلام عن تاريخها وتخطيط المدينة القديمة وعمارتها واسواقها وبيمارستاناتها ومساجدها ودور العلم فيها مستشرق هو شترك وكاتبان عراقيان من أكبر كتاب العراق وعلمائها هما الاستاذ السيد عبدالرزاق الحسني والاستاذ عبدالعزيز الدوري.

أما المستشرق شترك فمستشرق مشهور جنح إلى الدراسات الأثرية والجغرافية، وأسهم بمقالات كثيرة في دائرة المعارف الإسلامية، ومن آثاره: أرض بابل القديمة في كتب الجغرافيين العرب، واللغة العربية، وكربلاء.

وأما الاستاذ السيد عبدالرزاق الحسني فأستاذ عراقي فاضل شغف بتاريخ العراق وبلدانه، وتتبع حضاراته الأولى على توالي الأزمنة والقرون، وهو يجنح إلى دراسة معتقدات العراق وطوائفه الدينية.

وقد ألف ونشر بعض الكتب والرسائل في ذلك أودعها جوهر ما جمعه من مطالعاته ودروسه وزبدة مشاهداته، وأهم كتبه: تاريخ البلدان العراقية، وله إلى ذلك: الأغاني الشعبية، والصابئة قديماً وحديثاً، والبابليون في التاريخ، والخوارج في الإسلام، وتاريخ الوزارات العراقية، وتعريف الشيعة.

وأما الدكتور عبدالعزيز الدوري فقد تولى

منصب الاستاذية في جامعة بغداد، وأهم كتبه: كتاب النظم الإسلامية، وأسهم إلى ذلك بمقالات كثيرة في دائرة المعارف الإسلامية عن البلدان العراقية والنظم الإدارية في الإسلام.

ابراهيم زكي خورشيد
رئيس تحرير النسخة العربية
من دائرة المعارف الإسلامية

« بَغْداد » : حاضرة العراق (بابل)[1] في الوقت الحاضر، وقد كانت فيما مضى قصبة العباسيين الزاهرة وعاصمة العالم الإسلامي، وهي الآن أعظم البلاد شأناً في الولاية المعروفة بالاسم نفسه والتي كان يحكمها باشا فيما سلف، ويخترقها دجلة، وهي على خط عرض ٣٩ْ ١٩َ شمالا وخط طول ٤٤ْ ٤٤َ شرقي كرينوتش.

---

(١) بابل مدينة قديمة كانت عاصمة دولة بابل، أما العراق فقطر مساحته ١٤٣٠٠٠ كيلو متر، وبابل جزء صغير جدا من العراق الوسطى لا تتجاوز مساحته الخمسين كيلو مترا.

١ - تاريخها

اسم بَغداد ـ ونطقه الشائع الآن « بُغداد » ـ فارسي من غير شك، ومعناه عطية الله أو هبته. وقد روي في العصور الوسطى بصيغ مختلفة، منها بَغْدان وهي أكثرها ذيوعاً. وكان الناس يفضلون دائماً هذا الاسم الجاهلي بغداد [١]، أما الاسم الذي أطلقه المنصور على المدينة التي أنشأها وهو « مدينة السلام » أو « دار السلام » فقد انحصر استعماله في الشؤون الرسمية بصفة عامة، ومن ثم ضربت السكة به، وقد أخذ منه اللفظ اليوناني إيرونومولس. وتضاربت أقوال كتاب العرب تضارباً كبيراً في أصل هذا الاسم الأخير ومعناه، ولعل المنصور تفاءل به فاختاره لحاضرة ملكه.

---

(١) قد تحقق اليوم ان اللفظة ليست بفارسية بل هي آرامية تفيد معنى باب الأله او باب الضان او دار الغزل. فهي بل دودو او بكداد أو بيت كدادا.

ومن المؤكد أن دار السلام فيها إشارة إلى الجنة، لأننا نجد بعد ذلك أن بغداد أصبحت أحد المواضع الأربعة التي أطلق عليها المسلمون جنة الأرض، وهذه المواضع هي الأبلة وغوطة دمشق ووادي بَوّان ببلاد فارس وبغداد، ومهما يكن من شيء فإن الفرس قد فهموا مدينة السلام أو دار السلام على هذا المعنى، وشاهد ذلك أنهم نقلوه إلى لغتهم فقالوا «بهشت آباذ» أي موضع الجنة، أو الجنة العامرة إذا شئت التدقيق. وهم يستعملون هذه التسمية في الشعر غالباً كما يفعل الأتراك الذين نقلوها عنهم. وتنسب بغداد أحياناً إلى منشئها فيقال «المنصورية». ولها اسم آخر يشوبه الإبهام هو «الزّوْراء» ولعله صيغة عربية لكلمة إيرانية قديمة أكسبها خضوعها للصور القياسية الشائعة معنى جديداً.

وكثيراً ما خلط الرحالة الأوروبيون في القرون الوسطى بين بغداد وبابل كما خلطوا في بعض الأحيان بينها وبين سلوقية وطيسفون. فقد وردت

بغداد في مؤلفاتهم باسم بابل ***Babel*** وباتّلونيا ***Babellonia*** وغيرهما من الأسماء المشابهة؛ وإطلاق هذه التسمية الأخيرة على بغداد شائع في التفاسير التلمودية لشيوخ العشائر البابلية في العصر العباسي وفي مصنفات اليهود المتأخرين. وكان پترو دلا ڤاله ***Pietro della Valle*** الذي عاش في بغداد بين عامي ١٦١٦ و ١٦١٧ م أول من دحض هذا الخطأ الذي فشا في عهده. وكان الغربيون إلى القرن السابع عشر الميلادي يعرفون بغداد بالصيغة المحرفة بلدخ ***Baldach*** أو بلدتشو ***Baldacco***.

ومن المحقق أنه كانت هناك محلة منذ عهد سحيق في المكان الذي أصبح بعدُ مقر الخلافة. فقد وجد كل من رولنسون ***H. Rawlinson*** عام ١٨٤٨ م وأوپيرت ***J. Oppert*** عام ١٨٥٣ وپونيون وهارپر ***Pognon-Harper*** عام ١٨٨٩ م قطعاً من الآجر نقش عليها اسم بختنصر الثاني مأخوذة من محجر لا يزال جزء منه باقياً إلى اليوم على الضفة الغربية

لدجلة [١] وهناك بقايا بناء يشبه هذا المحجر أسفل المدينة الحالية بالقرب من قناة الحريم

وليس لدينا حتى اليوم دليل يؤيد الزعم القائل بأن بغداد رسمت في النقوش المسمارية بصيغة «بكدادو» لأننا إذا أخذنا بهذا أصبح في مقدورنا أن نقرأ «حددو» بدلا من «كَدُرَو» وهو الاسم المشكوك فيه لمكان ظهر لأول مرة على حجر من معالم الحدود للملك البابلي «مردخ بلادان» الأول الذي حكم من عام ١١٩٤ إلى ١١٨٢ ق م زد على هذا أنه ليس من المعقول أن اسماً لا شك في إيرانيته يرجع إلى مثل هذا العهد السحيق، كما أن ما ذهب إليه ليتمان ***Littmann*** من أن هذا الاسم ورد في نقوش ثمود مشكوك فيه، ونجد من جهة أخرى أنه من المقطوع به أن هناك إشارتين في التلمود إلى بغداد في العصر الجاهلي، ويمكن الرجوع إلى بحث بلوشيه

(١) لم يبق أي جزء من هذا الاثر ظاهرا، وقد يجوز ان هناك جزءاً صغيراً منه قد غمرته مياه دجلة.

Blochet فيما يختص باحتمال ورود بغداد في نص بهلوي باسم بكداد.

ووضعت مدينة «ثلثي» في موقع بغداد بمصور بطلميوس كما أن مدينة ستاكّة التي وردت بمصنف أكسينفون كانت مجاورة لموقع بغداد.

ومن الخطأ أن نقول إن إسكي بغداد التي فوق سامراء هي أصل مدينة بغداد الحالية، استناداً إلى أن كلمة إسكي معناها بالتركية قديم. وإن كانت هذه التسمية لم تنشأ إلا منذ عهد قريب، فقد جرت العادة بأن تسمى الأطلال باسم المدينة الشهيرة التي تجاورها، وشاهد ذلك قولنا إسكي موصل. ويطلق اسم بغداد على مكان آخر فقط في المشرق هو تل بغداد في الجنوب الشرقي من الرها أسفل خط عرض ٣٧° شمالا.

وأجمع كتاب العرب على أن المنصور لم يشيد مدينته في إقليم خلو من السكان، وذكروا بياناً كاملا

بأسماء محلات جاهلية أخذت تندمج تدريجاً في الأماكن التي شملتها العاصمة العباسية فيما بعد. وكانت بغداد أهم هذه الأماكن، وهي قرية نصرانية من أعمال بادوريَا (انظر هذه المادة) على الضفة اليسرى لدجلة، ويلوح أنها كانت تشمل المدينة المدوّرة التي بناها المنصور، كما أنها أضحت نواة لحاضرة العباسيين الجديدة، بل إن بغداد قد أخذت اسمها الشائع منها. ويجب أن نبحث عن معظم المحلات القديمة التي كان جل سكانها من النصارى الآراميين في النصف الجنوبي الذي أصبح فيما بعد الجانب الغربي للمدينة التي على الضفة الغربية لدجلة، في نطاق الحي الكبير الذي به السوق الكبيرة، أي في الكرخ وما جاور الكرخ شرقاً وغرباً. وفي هذا الإقليم قرى أصلها ساساني نذكر منها ما يلي: بَياوَرَى أو بَناورى وسال وشَرْوانِية؛ وسونايا (وقد أصبح اسمها فيما بعد «العَتيقة»)؛ ووَرْدانية؛ وورْثال أو ورْثالا.

وأخذت مدينة الكرخ اسمها من قرية قديمة سابقة

لها في العهد أسسها الملك الساساني سابور الثاني الذي حكم من عام ٣٠٩ إلى ٣٧٩ م. وكلمة الكرخ تقابل في الآرامية كلمة كرخا ومعناها مدينة.

وكانت «بُراثا» التي على مسافة من الشمال الغربي للكرخ بليدة قائمة بذاتها قبل عهد العباسيين، ولكن الجانب الغربي من بغداد اتسع بمرور الزمن فاحتضنها. وكانت قريتا الخطابية والشَرفانيّة موجودتين في النصفْ الشمالي من هذا الجانب قبل أن يحل عهد المنصور. وقد عرف هذا النصف فيما بعد بحي الحربية.

ويقول أكسينفون إن الأكميليين كانوا يملكون حدائق فسيحة في إقليم بغداد عند سِتاكه ***Sittake***. وهذا القول ينطبق أيضاً على ملوك الفرس المتأخرين. وأنشئت عمائر في حديقتين من هذه الحدائق الساسانية فكونتا حيين هما دار عمارة بن حمزة وبستان القُس. وابتنى الساسانيون بالقرب من مصب نهر عيسى قصراً أطلق عليه فيما بعد اسم «قصر عيسى». وأقيم

في عهدهم قنطرة وصلت هذه البقعة بالضفة الشرقية لدجلة. وفي هذا المكان أقيم فيما بعد جسر من القوارب وصل بين قصر الخلفاء وقصر عيسى. وكان هناك جسر آخر مشيد في الجاهلية فوق قناة الصراة في الجنوب الغربي من الكوفة، ويعرف هذا الجسر بالقنطرة العتيقة. ولا يوجد من الأماكن التي في شرقي دجلة ما يرجع عهده إلى ما قبل العباسيين سوى سوق الثلاثاء على نهر المُعَلَّى ومحلة المُخَرَّم، وهي أول محلة سكنت في عهد عمر بن الخطاب. وليست هناك صلة بين سوق الثلاثاء وثالثا المذكورة في بطلميوس (جـ ٥، ص ١٩)، لأن ثلثي لاثالثا هو الموضع الذي يتفق وموقع بغداد في مصور بطلميوس. ويؤكد كتاب العرب أيضاً أن المكان الذي أصبح فيما بعد مقبرة الخيزرانية كان قبل عهد المنصور مقبرة للمجوس. ولا شك في أن معظم أديرة النصارى التي ازدهرت في بغداد إبان العهد الساساني قد شيد في الجاهلية، ولدينا من الشواهد الأصلية ما يفيد أن قصر الخلفاء المعروف بالخلد على الضفة الغربية لدجلة

شيد مكان دير قديم، وأن مكاناً من الأمكنة التي عند ماتقى الصراة بدجلة قد أنشيء لمثل هذا الغرض، كما نستدل من الاسم الذي أطلق عليه في عصور متأخرة وهو «الدير العتيق».

ولم يكن لمحلة من هذه المحلات القديمة الكائنة في الموقع الذي قامت عليه بغداد فيما بعد أي شأن من الناحيتين السياسية والتجارية. ولذلك فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن المدينة التي ابتناها المنصور ثاني خلفاء العباسيين كانت مؤسسة جديدة بمعنى الكلمة.

وجرت العادة في المشرق أن يعقب تغير الأسرة الحاكمة انتقال مقر الحكم، وقد كان من المتعين على العباسيين بصفة خاصة أن يتخلوا عن دمشق قصبة أسلافهم التي ظلت على ولائها للأمويين، لأن هذه المدينة كانت قريبة من حدود الروم كما كان مركزها القاصي ناحية الغرب لا يلائم دولة تمتد أراضيها من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر السند. ومن السهولة بمكان أن نتوقع أن تنقل الأسرة

الحاكمة الجديدة مقر ملكها من الشام ،وهو إقليم فقير ضئيل الشأن، إلى العراق الغني بموارده الطبيعية. زد على هذا أن إقليم العراق قدر له أن يكون حلقة الاتصال بين العالم السامي والعالم الإيراني فأصبح بذلك واسطة العقد بين العنصرين الرئيسيين اللذين تألفت منهما الجماعة الإسلامية. ومما يجدر ذكره أيضاً أنه فضلا عن أن جل قوة العباسيين كانت في فارس لاعتمادهم على جند خراسان، فإنه لا شك في أنه كانت لهم مصلحة خاصة في نقل حاضرتهم ناحية المشرق، وما إن قاموا بتأسيسها حتى غدت ذات خطر في السياسة والثقافة.

وإنا لنجد أيضاً أن السفاح أول خلفاء بني العباس قد اتخذ مقره على ضفتي الفرات فلم يختر البصرة أو الكوفة، وهما المدينتان الكبيرتان اللتان كانتا موجودتين منذ الفتح الإسلامي الأول للعراق. وبديهي أن هذا لم يأت عفواً. فقد كان أهل الكوفة نزاعين إلى الشغب هواهم مع العلويين، أما البصرة

فكانت لا تصلح حاضرة للدولة بالنسبة لموقعها في الجنوب. ولذلك فضل السفاح الهاشمية (انظر هذه المادة) بالقرب من الأنبار. وشيد خلفه المنصور مقرّاً له بهذا الاسم على مقربة من الكوفة، ولكنه سرعان ما تخلى عنه لأنه كان مجاوراً للكوفة البغيضة إلى نفسه لتعصبها للعلويين، وبحث المنصور عن مكان جديد يصلح مقرّاً لحكمه وجنده، واختار آخر الأمر بقعة على دجلة فوق مصب نهر عيسى، وهو أكبر قناة من قنوات الفرات، وكان في هذه البقعة كما سبق أن بينا قرية تعرف ببغداد وعدة محلات صغيرة أخرى.

ويجدر بنا أن نعترف بأنه قد تحقق الطالع الذي أنبأ الخليفة بحسن هذا الموقع وصلوحه لتشييد حاضرته الجديدة، والحق أن الخليفة لم يكن أمامه أطيب منه، لأن الأرض الخصبة التي تمتد بين دجلة والفرات عند اقتراب أحدهما من الآخر حيث تصل بينهما قنوات صالحة في بعض أجزائها للملاحة فيتألف من هذا كله مجموعة مائية منظمة، وحيث

يصب ديالى[1] في دجلة فيكون ممراً طبيعياً يمكن بواسطته الوصول إلى الهضاب الإيرانية المرتفعة، هذه الأرض كانت على الدوام موطناً للحضارة ومهداً للثقافة الشرقية القديمة ومركزاً للتجارة وملتقى عدة طرق تصل بين مختلف الأمم. فقد تعاقبت في هذه البقعة الحواضر العظيمة مثل بابل وسلوقية وطيسفون، وورثت مدينة الخلفاء الجديدة هذه الحواضر، وكانت على مسيرة يوم (سبعة فراسخ أو حوالى أربعين كيلومتراً) من طيسفون العاصمة التي سبقتها في الزمن مباشرة.

والحق أن امتداد البطائح في المجرى الأسفل للفرات جنوبي بابل وصعوبة الاتصال الملاحي المتزايدة بالخليج الفارسي يفسر لنا لماذا كان موقع العاصمة منذ العهد السّلُوقي يختار دائماً على نهر دجلة.

---

(١) يغلط معظم كتاب الشرق في كتابة هذا العلم «ديالى» بالتاء الملفوفة وصوابه الألف المقصورة.

وضع المنصور أول حجر في بناء عاصمته الجديدة عام ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) وجمع العمال من بابل وغيرها، ويقال إن عددهم بلغ مئة ألف، فأتموا في أربع سنوات إنشاء مدينة عظيمة على الشاطىء الغربي لدجلة وفق خطة تجعلها مدوّرة. وبُني في وسطها قصر الخليفة المعروف بباب الذهب أو القبة الخضراء، والمسجد الجامع. وجلبت معظم الأحجار اللازمة للبناء من أطلال طيسفون المجاورة. وقد نشأت المدينة بمعناها الحقيقي حول نواة مدورة ثم قسمت إلى أحياء منفصلة وسرعان ما اتسعت اتساعاً كبيراً، ومن الواضح أن المنصور قد شعر سريعاً أنه منعزل في قصره لتزايد السكان من حوله، أو لعله لم يكن آمناً على نفسه، فشيد بعد بضع سنوات من بناء المدينة المدورة قصراً آخر على دجلة خارج أسوار المدينة وإلى الشرق منها: هو قصر الخُلد. ولا يعتبر المنصور مشيد الجانب الغربي من بغداد، أي المدينة التي على الضفة اليمنى لنهر دجلة فحسب، بل إنه يعتبر أيضاً مشيد القسم الشرقي الذي بني بعد الأول. وفي عام

١٥١ هـ (٧٦٨ م) شيد عدة مبان في شمالي المدينة لولده وولي عهده المهدي، وأهم هذه المباني قصر الرُّصافة.

ولم يكن المنصور يقصد بحال أن ينشيء حاضرة الدولة في بغداد بل كان غرضه اول الأمر هو إقامة مدينة على مقربة من الكوفة يعسكر فيها جنوده الخراسانيون، ولذلك قسم الأراضي التي حولها إلى قطاعات وزعها بين أقاربه ومواليه وقواد جيشه، وفعل مثل هذا عندما ابتنى الرصافة. وقد أورد اليعقوبي والخطيب البغدادي بياناً بهذه الإقطاعات.

وينقسم تاريخ بغداد الذي يبدأ بالمنصور إلى عهدين عظيمين: الأول عهد بني العباس الذي دام خمسمئة سنة، وكانت فيه بغداد ـ فيما خلا فترة تبلغ خمسة وخمسين عاماً ـ قصبة دولة إسلامية عظيمة شاسعة الأطراف، وغدت مركز الحياة العقلية وأهم مركز تجاري للشرق الأدنى، وكسفت شمسها

حواضر الولايات في العالم الإسلامي بل إنها احتلت أرفع مكان في العالم المتمـدن في ذلك العهد بفضل اتساعها وازدهارها وثروتها. أما العهد الثاني فيبدأ بسقوط الخلافة العباسية إلى وقتنا هذا، ولم تكن هذه المدينة في هـذا العهـد سـوى حـاضرة ولايـة مـن الولايات، اللهـم إلا فترات كـانـت خلالها المشتـى المختار لبعض الإيلخانية. وهكذا كانت حالها إبان الحكم التركي، فقد ظلت مدة طويلة عالية المكانة باعتبارها قصبة أكبر ولايات الترك وأهمها: كانت تعادل مصر أو تأتي بعدها. وتقلصت رقعة ولاية بغداد منذ ذلك الحين، وضعـف لـذلـك سلطـانها السياسي وانحصرت أهميتها شيئاً فشيئاً في الناحية التجارية، واستعادت في هذه الناحية الكثير من مجدها القديم وظلت محتفظة به إلى يومنا هذا. والحق إن تاريخ بغداد بأكمله في عهدها الأول هو في الواقع تاريخ بني العباس، ولذلك فإنه يجدر بنا في هذا المقام أن نقتصر على فذلكة خاصة بتطور التاريخ

المحلي لهذه المدينة بمعناه الضيق.

بلغت بغداد أزهى عصورها في القرن الذي أعقب وفاة المنصور، أو بوجه أدق في عهد خلفائه الخمسة من المهدي إلى وفاة المأمون، أي من عام ١٥٩ إلى ٢١٨هـ (٧٧٥ - ٨٣٣ م). إذ كانت مساحة المدينة خمسة أميال مربعة أو ستة في الوقت الذي ارتقى المهدي فيه العرش، ولما نقل هذا الخليفة بلاطه إلى الرصافة، أي الحي القائم على الشاطىء الشرقي لدجلة، اتسع هذا القسم من المدينة سريعاً. واستقرت هناك في الوقت نفسه الأسر الغنية وأتباعها من العبيد والموالي الذين يبلغون بضعة آلاف، وشيدت في هذا القسم قصور فخمة أجملها القصر الذي كان مسرحاً للهو والسرور وهو قصر اسرة البرامكة المشهورة ذات الحول والطول الذي انتقل إلى بيت الخلافة سقوط هذه الأسرة الفجائي، وأصبح بذلك نواة المباني العظيمة التي كان يتألف منها قصر الخلفاء على الشاطىء الشرقي لدجلة. وفي بداية حكم

الرشيد، ولعله أزهى عهـود المدينـة، أصبـح القسم الشرقي ينافس في الاتساع القسم الغربي.

وبعد عامين من وفاة الرشيد اشتجر الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون. وحوصرت بغداد لأول مرة في تاريخها ودام هـذا الحصـار أربعـة عشر شهـراً. وحوالى نهاية عـام ١٩٦ هـ (٨١٢ م) اطبـق جنـد هرثمة وطاهر، قائدي المأمون، على الأمين في بغداد وعزل هرثمة الجانب الشرقي الذي لم يكن يحميه سوى سور سرعان ما أزاله، بينما عسكر طاهر أمام باب الأنبار فسيطر بذلك على الجانب الغربي، وحدثـت مناوشات بين جنود الأخوين المتقاتلين، ودب الشجار بين جنود الحامية والسكـان اليـائسين، وامتلأ زمـن الحصار بالدسائس والغدر على اختلاف أنواعه ورزح الجانب الغربي تحت المجانيق، وتخرب الجزء الأكبر من نصفها الشمالي المعروف بالحربية. ووجد الخليفة نفسه آخر الأمر منعزلا في قصر الخلد على شاطىء دجلة، وما لبث أن وقع في الأسر وهو يحاول الفرار،

وقتل في أوائل عام ١٩٨ هـ (٨١٣ م) وبموته رفع الحصار وأصبحت بغداد المزدهرة خرائب ورماداً لأول مرة في تاريخها. فقد دمرت النيران أحياء بأكملها وأتت على سجلات الدولة كلها، ولم ينتعش الجانب الغربي الذي كان أكثر تعرضاً للنيران من سواه بل إنه لم يعد إلى ما كان عليه من اتساع. والطبري هو المصدر الذي ينبغي الرجوع إليه في أخبار الحصار الأول لاستفاضة روايته ولما أورده في وصف المدينة من التفاصيل الدقيقة القيمة، أضف إلى ذلك أن ما ذكره الطبري هو أقدم ما وصل إلينا في هذا الموضوع.

وأثار موت الأمين سخط أهل بغداد، وتمكن إبراهيم بن المهدي العباسي بفضل الخلاف بين الناس الذي اتخذ صورة الشغب من أن يستولي على بغداد ويصبح صاحب الأمر فيها ما يقرب من عامين، غير أن خيانة قواده أجبرته على تسليم المدينة وزمام الحكم إلى الخليفة المأمون. وقد ألحق الحصار الذي حدث في

عهد الأمين ضرراً جسيماً بقصري الخليفة، وهما قصر الذهب في سرة مدينة المنصور المدورة وقصر الخلد على دجلة، فنقل المأمون مقر الحكم إلى الجانب الشرقي من المدينة، واستولى على قصر البرامكة السابق ذكره وبسط في رقعته. وفي عهد خلفه المعتصم الذي حكم من عام ٢١٨ إلى عام ٢٢٧ هـ (٨٣٣ - ٨٤٢ م) قدر لبغداد أن تنزل عن مركزها الممتاز باعتبارها حاضرة الدولة إلى بليدة ضئيلة الشأن هي سامراء على مسيرة ثلاثة أيام من منبع النهر، وذلك لمدة خمس وخمسين سنة. فتحولت سامراء في طرفة عين إلى مقر فخم للخلافة. والسبب المباشر لنقل مقر الخلافة إلى هذه المدينة عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) هو أن أهل بغداد أسخطتهم قسوة الجند الخليط من الترك والبربر الذين غدوا في عهد المعتصم جيشاً عدته حوالى سبعين ألف مقاتل، لأن الاحتفاظ بمثل هذه الحامية الكبيرة في حاضرة الدولة أمر محفوف بالصعاب، ويلوح أن حرمان بغداد من بلاط الخليفة

وعمال الدولة لم يحل بينها وبين التقدم، وكانت هذه النقلة تشعر بأنها لحسن الحظ موقوتة لا يرجى استمرارها طويلا، وكان يحكم بغداد خلال هذه الفترة عمال معظمهم من أسرة بني طاهرالقوية النفوذ.

وفي هذه الفترة التي تعرف بالعصر السامرائي في تاريخ الخلافة حدث الحصار الثاني لبغداد الذي شغل جل عام ٢٥١ هـ (٨٦٥ م) تقريباً. وأخذ استبداد العمال في سامراء يشتد شيئاً فشيئاً، وكان الترك يقتتلون فيما بينهم، ففر المستعين إلى بغداد في القسم الأصغر من جنده، أما القسم الأكبر من الجنود الترك فقد بقي في سامراء وبايعوا المعتز ابن عم المستعين بالخلافة، ولم يجد المستعين فسحة من الوقت يتم فيها السور حول الجانب الشرقي بأسره والجانب الغربي من بغداد، إذ فاجأه المعتز على رأس جيش وبدأ يحاصر الحاضرة القديمة.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المحاصرون في الدفاع عن أنفسهم خوفاً من عودة الحكم التركي

الباطش واستماتتهم في الدفاع ، فإن المستعين بضعفه وتردده اضطر إلى التسليم آخر الأمر بشروط مهينة ، وتنازل عن كل حق له في الخلافة . وبينما قضى الحصار الأول الذي حدث في عهد الأمين على ازدهار الجانب الغربي من بغداد إلى الأبد فإن الحصار الثاني الذي حدث في عهد المستعين أصاب الجانب الشرقي بأضرار جسيمة ، وتخربت أهم أحيائه كالرصافة والشماسية والمخرم وأعيد بناء أجزاء منها فقط بعد ذلك (انظر أخبار هذا الحصار الثاني في الطبري ، جـ ٣ ، ص ١٥٥٣ - ١٥٧٨) . وظلت الأمور بعد الحصار على اضطرابها وسادت القلاقل وأعمال الشغب في الأعوام ٢٤٩ هـ (٨٦٣ م) و ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) و ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) بنوع خاص .

وأخذ مركز الخليفة في سامراء يتحرج شيئاً فشيئاً لأنه كان في الواقع تحت رحمة القواد من مرتزقة الترك ، ولذلك فإن المعتمد سابع الخلفاء بعد المعتصم هجر قصر الخلافة عام ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) ، وهو

القصر الذي اختاره سلفه المعتصم وجعل بغداد حاضرة الدولة للمرة الثانية، ولم يكن يزعجها الترك والبربر الذين كان يحزم أمرهم أخوه الموفق. وظلت حاضرة للدولة لا تنازعها في ذلك مدينة أخرى حتى سقطت دولة بني العباس. وبين رجوع الخلفاء إلى الحاضرة القديمة ودخول امراء بني بويه خمسون عاماً امتازت بامتداد قصر الخليفة امتداداً عظيماً في الجانب الشرقي، وأظهر الخلفاء الثلاثة الذين تولوا بعد المعتمد ـ وهم المعتضد والمكتفي والمقتدر ـ نشاطاً فائقاً في هذا السبيل. وشيدت في العهد نفسه عدة قصور وحدائق شغلت نحو ثلث مساحة الجانب الشرقي بأسره، وكانت تفصلها أسوار عن بقية المدينة. وسرعان ما نشأت أحياء جديدة مكتظة بالسكان حول الحي الفسيح الذي يشغله قصر الخليفة.

وساد السلام بغداد في عهدي الخليفتين الحازمين المعتضد والمكتفي، إذ إن الجند من الأتراك لم يجسروا على رفع رؤوسهم في هذه الحقبة، ولكن ما

إن مـات المكتفـي حتى أخـذت سلطـة الخلفـاء في التدهور السريع، وازدادت القلاقـل على الأيـام في العاصمة وبخاصة فتن الجند المصحوبة بالحرائق وأعمال السلب والشغب مما أدى إلى اضمحلالها السريع...

[شترك *M. Streck*]

وتحسنت الأحوال عندما استولى على بغداد معز الدولة أحمد الديلمي البويهي عام ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) وجمع في يده ما كان للخلفاء من سلطان، واستمر الحكم في بيته أكثر من قرن، واستولى الأمير البويهي في الجزء الشمالي من الجانب الشرقي على قصر الأمير السابق مؤنس وبنى هو وخلفاؤه من ذوي الميل الفني على توالي الزمن عدة قصور فخمة في ذلك الجزء من المدينة الذي أصبح قفراً منذ حصار عام ٢٥١ هـ، وقد عرفت جميع هذه القصور باسم «دار المملكة». ومما تجدر الإشارة إليه أن عضد الدولة أعاد بناء قصر الخلد الذي كان للمنصور وجعل منه بيمارستاناً،

وأثارت ميول بني بويه الشيعية في كثير من الأحيان عدة فتن.

وبينما كان أهل الكرخ في الجانب الغربي على ما عرف عنهم من نشاط يميلون إلى التشيع، كانت الأحياء الأخرى يسكنها أناس معظمهم من أهل السنة، ولهذا لم يستطع البويهيون قط أن يعيدوا المدينة إلى ما كانت عليه في أزهى أيامها، ولو أن السبب الأساسي الذي من أجله فشلت جهودهم هو انقسام البيت البويهي نفسه بعد وفاة عضد الدولة عام ٣٧٢ هـ (٩٨٣ م) واقتتال أفراده، وانغمست بغداد في هذا النضال أكثر من مرة، وسادتها الفوضى في كثير من الأحيان، وكانت المعارك الدموية بين أهل السنة والشيعة، وبين الترك والديلم، هي الصفة الغالبة على هذا العهد، وانتهز العامة فرصة هذه القلاقل فأعملوا السلب والنهب بما تشتهيه نفوسهم، واستمرت الأحوال على هذا المنوال إلى أن وزر ابن الـمُسْلِمة للخليفة القائم بأمر الله، فطلب العون من

طغرل بك السلجوقي، ودخل هذا بغداد عام ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م). وبعد مضي بضع سنوات، أي في عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٩ م) شبت فتنة البساسيري الذي أمر بأن تكون الخطبة باسم الخليفة الفاطمي، وعلى ذلك اضطر العباسيون إلى هجر المدينة، ولكن هذا الأمر لم يدم طويلا، فما إن رجع طغرل بك بعد ذلك بعام حتى أجبر البساسيري على مغادرة المدينة، واستعاد الخليفة القائم سلطانه عليها، فأضحت الخلافة منذ ذلك الوقت في حماية آل سلجوق الأقوياء. ولم يكن أمراء هذا البيت يقطنون بغداد وقتذاك، بل إن ألپ أرسلان لم يزر تلك الحاضرة قط، ولكنهم أقاموا من قبلهم حاكماً عسكرياً نيط به العمل على استتباب الأمن في المدينة. وكان ملكشاه أول من زارها منهم، ولم يقتصر في ذلك على زيارة واحدة، بل زارها مرات، وعقد عزمه في سنيه الأخيرة على أن يجعل منها مشتى له، ولهذا الغرض أصلح قصر بني بويه الذي أقام فيه، ووسَّعه ووضع

أساس المسجد الجامع المعروف بجامع السلطان، وعاجلته منيته في سن مبكرة، فلم يستطيع إتمامه، فأكمل بعد وفاته ببضع سنين عام ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م)، وأقيمت في بغداد وفي غيرها من المدن عدة مدارس منها المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير المشهور نظام الملك عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) وسرعان ما ذاع صيتها وكانت في الجزء الجنوبي من الجانب الشرقي قريبة من ضفاف دجلة.

واشتهر الخليفتان المقتدي، وحكم من عام ٤٦٧ إلى عام ٤٨٧ هـ (١٠٧٥ - ١٠٩٤ م) والمستظهر، وحكم من عام ٤٨٧ إلى عام ٥١٢ هـ (١٠٩٤ - ١١١٨ م) بشغفهما بإقامة العمائر، ففي أوائل حكم المستظهر بنى سوراً حول الجانب الشرقي لبغداد حيث يقيم الخلفاء، أي في الحي المعروف باسم الحريم وما جاوره من احياء. وهذا السور بأسره هو عين سور بغداد بصورته التي بقيت إلى وقت مدحت باشا في القرن الماضي. ويقول ابن حوقل: إن الخليفة المستضيء

هو الذي بنى هذا السور عام ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) ولو أن المستظهر هو الذي بدأ بنايته على التحقيق؛ ويقول ابن جبير الذي وصف هذا السور بعد ذلك ببضع سنين أي عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م)، إن لهذا السور أربعة أبواب نذكرها مبتدئين من الجانب الذي يلي دجلة ناحية الشمال:

(١) باب السلطان ويعرف الآن بباب المعَظَّم.

(٢) باب الظفريّة، ويعرف الآن بالباب الوسطاني.

(٣) باب الحَلْبَة، وهو الآن مسدود.

(٤) باب البَصليَّة، ويعرف الآن بالباب الشرقي، وقد أطلق عليه نيبور ***Neibuhr*** اسم قرا لق قالي (قرانلق قالي).

وساد بغداد السلام بصفة عامة في القرنين الأخيرين من العهد العباسي. وكانت الحرائق بطبيعة الحال تشب كثيراً بين الحين والحين، كما حدث في

عام ٤٦٦ هـ (١٠٧٤ م) وعام ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) و ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) . وغمرها الفيضان الخطر عدة مرات ، ولم تكن الفتن وأعمال الشغب نادرة الحدوث . وكان المجرمون وقطاع الطريق يلقون الرعب في قلوب سكان المدينة ، ولكن بغداد لم ترزح تحت حصار شديد الوطأة إلا مرة واحدة على يد السلطان محمد الثاني السلجوقي عام ٥٥١ هـ (١١٥٧ م) وقد قص علينا أخبار هذا الحصار على اختلافها شاهد عيان هو الكاتب والمؤرخ عماد الدين . واضطر هذا السلطان آخر الأمر إلى الارتداد عنها دون أن يظفر بطائل .

وابتنى اثنان من الخلفاء المتأخرين منشآت لا تزال باقية إلى يومنا هذا ، أولهما هو الخليفة الناصر لدين الله الذي رمم باب الحلبة عام ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) وزينه بنقش كان أول من عرفنا به نيبور ، ودرسه حديثاً كل من متوخ ***Mittwoch*** وبرشم ***M. Van Berchem***. وقد فصل البحاثة برشم الكلام عن نقش

رائع يزين حنيتي العقد الذي يعلو الباب ـ المسدود الآن ـ والمؤدي إلى البرج ويعرف الآن بباب الطلسم.

أما الخليفة الثاني المستنصر بالله فقد ابتنى مدرسة نستدل من نقش نشره نيبور لأول مرة أنها بنيت عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ - ١٢٣٣ م). ولا تزال هذه العمارة قائمة على ضفة دجلة عند جسر القوارب، وهي الآن دار المكوس. والحق إن جزءاً كبيراً من النقش القديم اختفى وحل محله نقش آخر جديد.

وهناك نقش آخر للخليفة المستنصر على جامع الخلفاء يرجع تاريخه إلى عام ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ - ١٢٣٦ م) واختفى هذا النقش الآن، وربما كانت مئذنة سوق الغزل القديمة التي لا تزال قائمة إلى اليوم هي مئذنة هذا الجامع. وقد نشر أوپنهيم ***Oppenheim*** صورة لهذا النقش في كتابه. والراجح ان يكون الخليفة المستنصر قد رمم جامع الخلفاء وليس هو الذي شيده. ويقوم هذا الجامع وسط المدينة شرقي المستنصرية، ويقال إنه نفس جامع القصر الذي شيده

الخليفة المكتفي الذي حكم من عام ٢٨٩ إلى عام ٢٩٥ هـ (٩٠٢ - ٩٠٧ م). وهو من أهم مساجد المدينة.

ووصل هولاكو وجنوده من المغول والترك إلى أسوار بغداد في المحرم من عام ٦٥٦ هـ (يناير ١٢٥٨ م) وفي الرابع من صفر (١٠ فبراير) وجد المستعصم آخر خلفاء بني العباس نفسه مضطراً إلى التسليم دون قيد ولا شرط. وقتل بعد ذلك بعشرة أيام هو وأفراد كثيرون من أهل بيته بينما نهبت المدينة وأحرقت، ولكنها لم تخرب بأسرها كغيرها من المدن التي فتحها هولاكو، لأنه كان يريد أن يتخذ منها عاصمة له، فنجده على العكس من ذلك قد أمر بترميم عدد من العمائر التي أصابها التخريب أكثر من سواها، مثل جامع القصر الذي سلفت الإشارة إليه.

ولما كنا لا نستطيع أن نفصّل القول في تاريخ بغداد منذ فتحها المغول فسنقتصر على المعالم البارزة منه: كانت المدينة حتى عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ -

١٣٤٠ م) تابعة للمملكة الإيلخانية او الهولاكية وجعلت حاضرة للعراق العربي. وفي هذا العهد زارها الرحالة المشهور ابن بطوطة عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ومما يدعو إلى الأسف أن وصفه لها مأخوذ في جملته من ابن جبير. ويرجع وصف حمد الله مستوفي إلى هذا العهد أيضاً، أي إلى عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م). وفي عام ٧٤٠ هـ ظهر حسن بزرك واستقل بالأمر فيها وأسس الدولة الجلائرية، وقام بتشييد مدرسة تم بناؤها في عهد ولده أويس، ولعل هذا كان عام ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م)، وسميت المرجانية نسبة إلى أمير يدعى مرجان، ولا يزال بناؤها قائماً، وقد نشرت النقوش التي عليه: نشر نيبور جزءاً منها ونشرها كلها برشم (كتابه المذكور ص ٤٥ وما بعدها).

واستمر حكم الأسرة الجلائرية إلى عام ١٤١٠ م، وفي أيامها استولى تيمور على بغداد مرتين؛ الأولى عام ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ - ١٣٩٣ م)

ولم يلحق المدينة من فتحه ضرر جسيم. أما في المرة الثانية، عام ٨٠٣ هـ (١٤١٠ م) فقد ذُبح أهلها وخرب الكثير من المساكن والمنشآت العامة. ورجع السلطان أحمد الجلائري إلى بغداد بعد وفاة تيمور عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م) وأصلح بقدر استطاعته الأسوار التي دمرها تيمور، ولم ينقض طويل وقت حتى قتله قره يوسف أمير القطيع الأسود من التركمان عام ٨١٣ هـ (١٤١٠ م) واستولى رجاله على المدينة، وظلت في حوزتهم إلى عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ - ١٤٦٨ م) وهنالك انتزعها منهم تركمان القطيع الأبيض يقودهم أوزون حسن. وفي عام ٩١٤ هـ (١٥٠٧ - ١٥٠٨ م) غزا الشاه إسماعيل الصفوي بغداد وظلت في حوزة خلفائه إلى عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م). واستعاد الشاه طهماسب المدينة للصفويين من يد ذي الفقار عام ٩٣٦ هـ (١٥٣٠ م). وكان هذا الزعيم الكردي قد جعل الخطبة باسم السلطان سليمان الأول العثماني أمداً

وجيزاً. وفي عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م) دخل السلطان سليمان الأول مدينة بغداد، وظل يحكمها منذ ذلك الوقت وال من قبل الأتراك إلى أن طلب الثائر بكير صوباشي معونة الشاه عباس الأول الصفوي فاستولى هذا على المدينة عام ١٠٣٣ هـ (١٦٢٣ م)، ولم يكن الترك عازمين بحال من الأحوال على ترك المدينة، فاستعادوها عام ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) بقيادة السلطان مراد الرابع نفسه. وسد مراد بهذه المناسبة باب الطلسم، ورمم عدة أضرحة مثل ضريح أبي حنيفة في قرية المعظم الحديثة على الشاطىء الشرقي لدجلة شمالي بغداد، وضريح عبدالقادر الجيلاني بداخلها. وفي هذا العهد هبطت بغداد إلى الدرك الأسفل، ويقول تاڤرنييه *Tavernier* عام ١٦٥٢ إن سكانها في ذلك الحين بلغوا ١٤,٠٠٠ نسمة فقط.

وأضحت بغداد من جديد قصبة ولاية تركية يحكمها هي والبصرة وال واحد في بعض الأحيان، وقد زودنا كل من نيبور وإيوار ببيان بأسماء

هؤلاء الولاة، وأكمل إيوار هـذا البيـان حتى عـام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م). وفي هذا العهد ازداد رخاء المدينة وتضاعف عدد سكانها حتى وصل في بداية القرن التاسع عشر إلى ١٥٠,٠٠٠ نسمة لم يبق منهم بعد الطاعون الذريع الذي اجتاحهـا عـام ١٨٣١ م سوى ٣٠,٠٠٠ نسمة.

وتتميز مدة ولاية مدحت باشا من عام ١٨٦٩ إلى عام ١٨٧٢ م في تاريخ بغداد بأنها كانت عهد نهضة حقيقية، إذ تم خلالها مد خط تلغرافي وترام تجره الخيول يصل إلى الكاظمين وفتح مدارس وإقامة منشآت أخرى نافعة، كما عمد هذا الباشا إلى إزالة السور القديم. وعلى هذا فإنا لا نجد اليوم منها إلا أرضا مرتفعة بها بقايا من الحصون القديمة. ووصل مدحت بين بغداد والبصرة بخط من القوارب البخارية بعد أن أعطى امتياز هذا الطريـق وطـريـق الخليـج الفارسي إلى شركة لنچ للملاحـة البخـاريـة ***Lynch Steam Navigation Company***. والآمـال العظيمـا

معقودة على إنشاء خط حديدي يصل بين آسية الصغرى والآستانة [1] ، وبذلك توصل بغداد بالتجارة العالمية. وبغداد الآن مركز للتجارة مع جميع الأقطار المجاورة عامة وبلاد فارس خاصة.

ويقدر أوپنهيم عدد سكان المدينة وضواحيها بـ ٢٠٠,٠٠٠ نسمة منضم ١٥٠,٠٠٠ من المسلمين وغالبهم من الشيعة. ويذهب كوينيه ***Cuinet*** إلى أن عددهم ١٤٥,٠٠٠ من الأنفس، وببغداد كذلك ٤٠,٠٠٠ يهودي و ١٠,٠٠٠ نصراني معظمهم من الكاثوليك والأرمن الكرج.

---

(١) بوشر مد هذا الخط من بغداد الى سامراء قبل الحرب العالمية الاولى ومده الانكليز من سامراء الى بيجي « بعجة القديمة » في عام ١٩١٨ ، والاعمال جارية الآن لايصاله بخط الشرق بحيث لن ينتصف العام ١٩٣٩ الا وتجرى السكة مجراها.

عبدالرزاق الحسني

ب ـ تخطيط المدينة القديمة

عرفنا من الإلمامة التاريخية السابقة أن بغداد الحديثة التي على الشاطىء الشرقي لدجلة لا تزال تشغل المساحة التي كانت تشغلها في العهد الأخير من خلافة بني العباس. ومع ذلك فقد كانت هناك في تلك الأيام أحياء أخرى تفصل بعضها عن البعض أراض خربة تمتد إلى ما يعرف الآن بالمعظَّم بما فيه ضريح أبي حنيفة وغيره من أئمة المسلمين. وكانت في هذا المكان مقبرة من أقدم المقابر في بغداد نسبت إلى الخيزران أم الخليفة هارون الرشيد، وفيها قامت أضرحة الخلفاء المتأخرين. وإلى الجنوب من هذه المقبرة نشأت المدينة الشرقية القديمة المعروفة بالرصافة أو عسكر المهدي بما فيها قصره وجامع الرصافة، وهو من أهم المساجد التي شيدت في عهد الخلافة الإسلامية. وكانت تجاورها من الناحيتين الشرقية والجنوبية أحياء الشماسية ودار الروم والمخرَّم، وابتنى بنو بويه في هذا الحي الأخير دار المملكة، كما أن

سلاطين آل سلجوق كانوا يسكنونه كلما زاروا بغداد، وابتنى فيه ملكشاه جامع السلطان الذي سبقت الإشارة إليه، بيد أنه لم يبق لهذا المسجد أثر، مثله في ذلك مثل مسجد الرصافة، مع أن المسجدين بقيا بعد الفتح المغولي. وكانت هذه الأحياء تشغل ما بين قرية المعظم وما يعرف الآن بباب المعظم وبينهما مسيرة نصف ساعة. وكان في المدينة الشرقية الحالية دار الخلافة، وكانت في الأصل جوسق جعفر البرمكي (انظر هذه المادة) ثم انتقل إلى المأمون قبل اعتلائه الخلافة، ولم ينقل الخلفاء العباسيون مقرهم إليها إلا بعد رجوعهم من سامراء وشيدوا فيها عدة قصور أشهرها التاج. والمعتضد أول من وضع أساس هذه القصور، ولم يتم بناؤها إلا في عهد ولده وخليفته المقتفي، فهو الذي بنى المسجد الجامع الثالث، وإن كان هو الثاني من ناحية الترتيب التاريخي في المدينة الشرقية، وقد عرف بجامع القصر. وكان قصر التاج على ضفاف دجلة تحميه من

الفيضان سدود، وإلى جانبه بنى المقتفي أيضاً قبة الحمار. وسبب تسميتها بهذا الاسم هو أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى قمتها على ظهر حمار يسير في طريق يدور صعدا حول البناء. وهذا النمط من أنماط البناء يذكرنا بالنمط الزقرتي القديم وله نظائر في أطلال سامراء، وفي بغداد نفسها مثال له هو ضريح الشيخ عمر السهروردي المتوفى عام ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) الذي لا يزال قائماً (انظر صورة هذا الضريح في كتاب ڤون أوپنهايم الذي سبق أن ذكرناه، ص ٢٤٦). وكل هذه العمائر التي يقال إن عددها بلغ في عهد المقتدر ثلاثاً وعشرين عمارة كانت مدينة قائمة بذاتها تعرف بالحريم، فيها من حدائق الحيوان والميادين وغير ذلك. وقد فصل الخطيب البغدادي الكلام عن هذه العمائر عند وصفه لاستقبال المقتدر لسفارة الروم عام ٣٠٥ هـ الموافق ٩١٧ - ٩١٨ م. وكان يحيط بالحريم كله سور له سبعة أبواب يضم ما يقرب من ثلث الجانب الشرقي

لبغداد . وإذا أردت زيادة في التفصيل فإننا نحيلك إلى الفصول الخاصة في كتاب ***Le Strange*** عن بغداد ، ومن الطبيعي أنه قد حدثت تغييرات كبيرة أصابت هذا الموضع على تعاقب القرون؛ مثال ذلك أن قصر التاج وقبة الحمار أتت عليهما النيران عام ٥٤٩ هـ الموافق ١١٥٤ م.

ولم يبق شيء ما تقريباً من الجانب الغربي، وهو أقدم من الجانب الذي ذكرناه، اللهم إلا أضرحة قليلة ، وعلى الرغم من أنها لم تبق في شكلها القديم فإنها ما زالت قيمّة جداً بالنسبة لتخطيط المدينة القديم ، لأن بناءها أعيد في المواضع نفسها التي كانت تقوم عليها في الزمن الغابر، وهذه الأضرحة هي ضريح معروف الكرخي وضريحا الكاظمين الشيعيين الكبيرين ونعني بهما الإمام السابع موسى الكاظم المتوفى عام ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) والإمام التاسع محمد الجواد المتوفى عام ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م)؛ ولسنا في حاجة إلى ذكر الضريح المنسوب إلى زبيدة زوجة هارون

الرشيد المتوفاة عام ٢٠٦ هـ (٨٣١ م) لأن ابن الأثير يقرر في جلاء أنها لم تدفن في هذا الموضع (ابن الأثير، طبعة تورنبرج، جـ ٩، ص ٣٩٥). والنقش الذي على هذا الضريح المؤيد لتلك الرواية الخاطئة والذي وصفه نيبور يرجع[1] إلى عام ١١٣١ هـ (١٧١٨ م). ونستطيع أن نصرف النظر عن بعض الأضرحة الأخرى وعن رباط الدراويش الذي بناه قلج أرسلان وكتب عليه نقش تاريخه عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م). وضريح الكاظمين على الضفة اليمنى لدجلة تجاه المعظم، وهو الآن مكان هام يتراوح عدد سكانه بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ نسمة

---

(١) لا صحة لنسبة القبر الذي في الكرخ من بغداد (المعروف بقبر الست زبيدة) الى زبيدة زوجة الرشيد لان المؤرخين اجمعوا على انها دفنت في مقابر قريش الكائنة في صحن الكاظمين، اما المدفونة في هذا القبر فهي زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق وزوج السلطان مسعود ابن السلطان محمد ملكشاه وكانت توفيت في سنة ٥٣٢ هجرية (١١٣٧ م).

عبد الرزاق الحسني

ويربطه الترام ببغداد. وكان في هذا المكان خلال العصور القديمة مقبرة قريش بالقرب من باب التِبن. وتخرب ضريح الكاظمين، ولكنه رمم عدة مرات بعد ذلك. ويوجد في هذا الموضع اليوم مسجد شيد في بداية القرن التاسع عشر له أربع مآذن وبرج للساعة. وقبة هذا المسجد ومآذنه مغطاة بقشرة من الذهب وبابه المرتفع مزين بالقاشاني الجميل، ويزوره سنوياً أفواج من الشيعة، أما أهل السنة فقد كان لهم في الجزء الشمالي من الجانب الغربي مزار مشهور كانوا يحجون إليه في عهد الخلافة العباسية، وهو قبر أحمد ابن حنبل. ويقول «له سترانج» إن هذا الضريح زال عندما تخرب الحي الذي كان قائماً فيه، ومنذ ذلك الوقت ظن الناس خطأً أن قبر ابنه عبدالله على ضفة دجلة هو قبر أبيه إلى أن زال هذا القبر أيضاً بفعل الفيضان. وكان حي الحربية يشغل بالتقريب المكان الذي بين الجزء الشمالي الأقصى من الجانب الغربي لبغداد وبين مدينة المنصور الأصلية، وكان هذا الحي

يواجه الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد، وكانت في هذه البقعة عدة أحياء أخرى تغيرت أسماؤها عدة مرات على مر العصور، ولا نستطيع هنا تفصيل القول فيها وحسبنا أن نقول إن هذا الجزء من بغداد قد وصل إلى درجة أصبحت أجزاؤه المأهولة بالسكان ضواحي قائمة بذاتها تفصلها بعضها عن بعض خرائب متسعة.

ولم يبق أثر من مدينة المنصور، أي مدينة السلام أو الزوراء بما فيها من أسوار وأبواب، وموقعها الخاص الفزيد الذي نعرف أدق تفاصيله من أوصاف مؤلفي العرب كاليعقوبي والخطيب البغدادي يقتضي منا أن نسهب في الحديث عنه، ولكن يجدر بنا أن نمر عليه مر الكرام ونحيل القارىء إلى الفصول الأولى من كتاب له سترانج. ولسنا ندهش من اختفاء هذه المدينة اختفاء تاماً لأن العباسيين نقلوا دار المملكة إلى الجانب الشرقي عندما رجعوا من سامراء. ولم يعنوا بالمحافظة على الأسوار والعمائر العامة، اللهم إلا إذا

استثنينا المسجد الجامع. ولم يحفل أحد بإعادة بناء ما خربه الفيضان والحريق والحصار والفتن، وفقدت المدينة جزءاً من سكانها. وبقي الجزء المجاور لباب البصرة من بغداد مدة أطول من غيره، ولذلك فإن الناس لم يعودوا يتحدثون في القرون الأخيرة قبل عام ٦٥٦ هـ عن مدينة المنصور، بل اقتصر حديثهم على حي باب البصرة.

وكانت أجزاء المدينة المختلفة التي تمتد غرباً وجنوباً حول مدينة المنصور تكوّن المركز التجاري والصناعي في صدر العهد العباسي، لأن هذا الموقع كان ملائماً. ففيه تكثر القنوات التي كانت ـ شأن الصراة ونهر عيسى ـ وسيلة من الوسائل المباشرة للاتصال بالفرات، فاجتذبت إليها سكاناً يتميزون بالنشاط وحب العمل. وفي هذا الموضع وجدت ضاحية الكرخ التي كثيراً ما ذكرت في تاريخ بغداد والتي كان بين أهلها من الشيعة وبين جيرانهم من الأحياء الأخرى معارك دموية، وبخاصة من يقطنون

باب البصرة. وبقي هذا الجزء من المدينة إلى يومنا هذا . ويسمي الترك الجانب الغربي من بغداد باسم « قارشي ياقه » ومعناه بالعربية الجانب الآخر، وفي لهجة العراق « هذاك الجانب » [أي ذلك الجانب] والجسور المقامة على القوارب تيسر عبور دجلة في عصرنا هذا كما كان الحال في العصور المتقدمة، ولو أن مواضعها قد تغيرت في كثير من الأحيان.

تعليق على مادّة "بغداد"

بغداد حديثاً

ترك الترك بغداد ليلة الحادي عشر من مارس سنة ١٩١٧ وليس فيها من الحضارة والعمران ما يستحق الذكر. ولولا المباني التي شادها مدحت باشا والي بغداد (١٨٦٩ - ١٨٧٣ م) والشارع العام الوحيد الذي بدأ بفتحه خليل باشا في عام ١٩١٦ م، لقلنا إنهم تركوا بغداد ولا أثر لهم فيها يذكر.

ودخلها الإنكليز في اليوم التالي فأتموا فتح الشارع المذكور وشرعوا في تنظيمها تنظيما عصرياً جديداً، فقد أناروها بالكهرباء وبلطوا بعض الجادات بالزفت وأقاموا بعض البنايات المهمة، وقام الحكم الوطني فيها في ٢١ آب سنة ١٩٢١، فأخذت هذه العاصمة القديمة تسترجع ما اندثر من مجدها وما غبر من عزها، وهي تمتد اليوم من الأعظمية إلى الكرادة الشرقية بمسافة خمسة عشر ميلا تزينها القصور الشاهقة والبنايات الفخمة، وتتخللها البساتين الكثيرة والحدائق النضرة، ويخترقها دجلة كما كان في السابق فيشطرها شطرين يسمى الأيمن منها بالرصافة ويدعى الثاني بالكرخ، وقد أقيمت عليه عدة أجسر بعضها حديدي والبعض الآخر مقام على قوارب من حديد، وتخترقها من الشمال إلى الجنوب جادتان فسيحتان مبلطتان تقوم على جوانبها عدة دور ومخازن وتقطعها جادات فرعية مبلطة ومنارة بالكهربية. وتعد نفوسها حسب إحصاء عام ١٩٣٧

(٣٦٧,٤٥٠) نسمة عدا الأجانب. وكانت المنازل في بغداد تبنى مفتوحة بالآجر الأصفر على الطريقة الشرقية، أما الآن فإنها تبنى مغلقة على الطراز الأوربي الحديث. ويستعمل البغداديون الآن الحديد والأسمنت وسائر المواد الأوربية المتينة في معظم منشآتهم.

ودور العلم في بغداد على اختلاف درجاتها كثيرة، وكذا المطابع والمكتبات العامة والخاصة، ويصدر فيها من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية والنشرات الثقافية عدد لا يستهان به، وتمتد منها خطوط حديدية إلى بعض الأنحاء تبلغ مسافتها نحو ألف ميل وتنزل في مطارها الكبير جل الطائرات المارة على طريق بغداد إلى ايران والهند وأوربا، وتسير في جاداتها وشوارعها ما لا يقل عن الثلاثة آلاف سيارة ومركبة.

وتجارة المدينة واسعة جداً وأسواقها حافلة بأنواع

البضائع الأجنبيـة والشرقيـة وفيهـا عـدة شركـات ومصارف أجنبية ومصانعهـا المختلفـة والكثيرة تمون الجيش والشرطة وطلاب المدارس بأنفس المنتوجـات المحلية وكذا التبـغ والسكـايـر و بعـض الحاجيـات الطفيفة .

وفيها دور للآثار القديمة لا بأس بها . ومن الآثار العباسية التي لا تزال ماثلة للعيان ، منارة جامع الخلفاء المعروفة اليوم بمنارة سوق الغزل وبعض غرف من قصر المأمون في القلعة المدفعية وجدر من المدرسة المستنصرية الشهيرة ومراقد معروف الكرخي ومنصور الحلاج وجنيد والشيخ عبدالقادر الكيلاني وأبي حنيفة النعمان بن ثابت والشيخ عمر السهروردي وغيرها .

ومن مباني بغداد الفخمـة الحاليـة قصر الزهـور والمطار المدني والبلاط الملكي والمستشفى الملكي ودور الحكومة وقصور الوزراء والأمراء وبيوت المتمـولين ومحطات البث اللاسلكي ودور السينما وبعض الفنادق الكبرى .

وبغداد فضلا عن كونها عاصمة العراق ومقر البرلمان فهي مركز لواء بغداد الذي تتبعه عدة أقضية، فالعراق يقسم الآن إلى (١٤) لواء، ولكل لواء أقضية ولكل قضاء نواحيه. ورأس الإدارة في اللواء هو المتصرف، وكان هذا يعين بإرادة ملكية بناء على اقتراح وزير الداخلية ومصادقة مجلس الوزراء، أما رأس الإدارة في القضاء فهو القائمقام وكان هذا يعين بإرادة ملكية أيضاً بناء على ترشيح الوزير المختص. وأما رأس الإدارة في الناحية فهو المدير وهذا يعين من قبل وزارة الداخلية فقط.

السيد عبدالرزاق الحسني

بغداد: تقع بغداد على ضفتي نهر دجلة على خط عرض ٣٣ْ ٢٦َ ١٨ً شمالا، وخط طول ٤٤ْ ٢٣َ ٩ً شرقا. وقد ظلت هذه المدينة ـ منذ إنشائها في القرن الثامن الميلادي ـ مقرا للخلافة العباسية حتى سقوطها، والعاصمة الثقافية للعالم قرونا، وأصبحت

بعد عام ١٢٥٨ هـ قصبة لولاية، وظلت تحت الحكم العثماني حاضرة ولاية بغداد، ثم أصبحت عام ١٩٢١ عاصمة العراق الحديثة.

التاريخ

بغداد من الأسماء الجاهلية، ولاسمها صلة بالمحلات السابقة في هذا الموضع. ولقد أدرك هذه الحقيقة كتّاب العرب، فأخذوا يبحثون، كما هي العادة، عن أصوله الفارسية، وتتضارب آراؤهم في تفسير هذا الاسم، وأشيع هذه الآراء أنه يعني «عطية الله» أو «هبة الله» (أو الوثن). ويميل الكتاب المحدثون بوجه عام إلى تفضيل هذا الاشتقاق الفارسي. ويميل آخرون إلى القول بأن الاسم من أصل آرامي ومعناه «بيت الأغنام أو حظيرتها» (ي. غَنيمة، و أ. الكرملي في لغة العرب، جـ ٤، ص ٢٧؛ جـ ٦، ص ٧٤٨، لاحظ إشارة الطبري إلى سوق البَقر في موضع بغداد، جـ ٣، ص ٢٧٧).

ويفضل دلتش ***Delitzsch*** الرأي القائل بأن الاسم من أصل آرامي دون أن يفسر المعنى وثمة وثيقة شرعية ترجع إلى عهد حمورابي (١٨٠٠ ق، م) يرد فيها ذكر مدينة بكدادو. وهذا يدل على أن الاسم كان يستعمل قبل حمورابي، وعلى وجه التحديد قبل أن يتعرض لأي تأثير فارسي محتمل. والحق إن كلمتي «بَـك» و «حُو» كان يعبر عنهما بالرسم نفسه. ومهما يكن من شيء فإن هناك حجرا من معالم الحدود يرجع إلى عصر الملك الكَسّنى[1] نزيماروتّاش (١٣٤١ - ١٣١٦ ق م) يرد فيه ذكر مدينة پيلاري ***Pilari*** على ضفة «نهر شَرّى» في ناحية بكدادي، هذا بالإضافة إلى أن ذكر بكداثا مرارا عديدة في التلمود يجعل كلمة «بـك» أرجح في القراءة. وهناك حجر آخر من معالم الحدود يرجع إلى عهد الملك البابلي مردخ أپالدّين (١٢٠٨ - ١١٩٥ ق، م) يتردد فيه ذكر مدينة بغداد.

---

(١) ينتمي الى شعب غير سامي غزا بابل سنة ١٧٤٦ ق.م.

ولقد قام الملك أداد ـ نيراري الثاني (٩١١ ـ ٨٩١ ق، م) بنهب محلات من بينها بكدا (دو)، وأصبحت بغداد في القرن الثامن ق.م محلة آرامية، ويذكر تكلات پِلّصَّر *Tiglatpilasser* الثالث (٧٤٥ ـ ٧٧٢ ق.م) بكدادو في معرض حديثه عن قبيلة آرامية.

ومن الإنصاف، والحالة هذه، أن نسلم بأن أصول الاسم يكتنفها الغموض. ولا يغير من الموقف معرفة أن الإيرانيين استعملوا كلمة «بگ» حوالى القرن الثامن ق.م للدلالة على «رب» وأنها كانت تظهر في أسماء الأشخاص.

وأطلق المنصور على مدينته اسم مدينة السلام تيمناً بجنة الخُلد (القرآن: سورة الأنعام، آية ١٢٧، سورة يونس، آية ٢٦). وكان هذا هو الاسم الرسمي الذي يكتب في الوثائق والسكة والأوزان إلخ، واستعملت من الاسم صيغ مختلفة وبخاصة بُغدان وتسميات مثل مدينة أبي جعفر، ومدينة المنصور، ومدينة الخلفاء،

والزَوْراء (ابن الفقيه، ورقة رقم ٢٩ ب، ياقوت، جـ ١، ص ٦٧٨؛ ابن رسته، ص ١٠٨). ويبدو أن الزوراء اسم قديم كما يقول الفخري (الفخري، ص ١٤٥؛ انظر المستوفي: نزهة القلوب، ص ٤١). ومن شاء الاطلاع على التفسيرات المتأخرة فلينظر المسعودي. ويروي المصنفون العرب أن المنصور شيد مدينته في موضع كانت تقوم فيه محلات جاهلية أهمها قرية بغداد، على الضفة الغربية لنهر دجلة شمالي قناة الصراة. ويرى البعض أنها قرية بادورَيا، ويشيرون إلى سوقها السنوية، وسوف يعيننا هذا على أن نفسر لم أصبحت الكرخ من بعد حيا للتجار. ولقد كانت هناك محلات قديمة، جلها آرامية، على الجانب الغربي في جوار الكرخ، ومن بين هذه المحلات: الخَطّابية (بجوار باب الشام) والشَرَفانِيّة، وشماليها الورْدانِيّة التي أصبحت في نطاق ربع الحربية، ومنها سونايا قرب ملتقى قناة الصراة بنهر دجلة (أصبح اسمها فيما بعد «العتيقة») وقَطفْتا عند

الطرف الذي تصب فيه قناة رُفَيْل في نهر دجلة، وبُراثا حيث تتفرع قناة كرخايا من قناة عيسى. وكانت تقوم ثلاث محلات صغيرة بين قناة كرخايا وقناة الصراة وهي: سال: ووَرْثالا (ربع القلاّعين فيما بعد) وَبنَاوِرَى. أما الكرخ نفسها (وكلمة كرخا الآرامية معناها بلدة حصينة) فتتخذ اسمها من قرية أقدم منها تنسبها الروايات الفارسية إلى سابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩ م).

ويقول إكسنيفون إن الأكميليين كانوا يملكون بساتين فسيحة في ناحية بغداد (عند سِتّاكَه ***Sittake***) ويشير المصنفون العرب إلى بستانين منها. وكان قرب مصب نهر عيسى قصر بناه الساسانيون (قصر سابور)، وشيد المنصور فيما بعد قنطرة في موضعه. أما القنطرة العتيقة القائمة فوق قناة الصراة، جنوبي غرب باب الكوفة فقد بناها الساسانيون، وعلى الجانب الشرقي سوق الثلاثاء ومقبرة الخيزران، ويرجعان إلى العصر الجاهلي. وكان في المنطقة نفسها

أديرة شيدت في الجاهلية مثل دير مارفَثْيون (الدير العتيق) حيث شيد قصر الخَلْد، ودير بستان القُسّ، ودير الجاثليق الذي دفن بالقرب منه الشيخ معروف.

ولم يكن لأي محلة من هذه المحلات القديمة شأن من الناحيتين السياسية أو التجارية، وعلى هذا الأساس يمكن أن تعد مدينة المنصور منشأة جديدة. وما أكثر ما خلط الرحالة الأوروبيون في القرن الوسطى بين بغداد وبابل، كما خلطوا في بعض الأحيان بينها وبين سلوقية، وترد في أخبارهم باسم بابل وبابلّونيا إلخ. والتسمية الأخيرة الخاطئة لبغداد شائعة كذلك في التفاسير التلمودية لشيوخ العشائر البابلية (في العصر العباسي)، وفي مصنفات اليهود المتأخرين، وكان بيتروده لاڤاله الذي عاش في بغداد (١٦١٦ - ١٦١٧ م) أول من دحض هذا الخطأ الذي فشا في عهده. وكان الناس في الغرب حتى القرن السابع عشر يعرفون بصفة عامة اسم بغداد بالصيغة المحرّفة بلدخ ***Baldack*** (بَلْدَكَو ***Baldacco***)

وربما كانت مشتقة من الصيغة الصينية للاسم.

وحول العباسيون أبصارهم إلى الشرق، وأخذوا يبحثون عن عاصمة جديدة ترمز لدولتهم، فانتقل السفاح أول خلفاء بني العباس من الكوفة إلى الأنبار، وانتقل المنصور إلى الهاشمية بالقرب من الكوفة، بيد أنه سرعان ما أدرك أن الكوفة النزاعة للشغب والمتعصبة للعلويين لها أثر سيء على جيشه، وفي الوقت نفسه كان من السهل اقتحام الهاشمية كما ثبت من فتنة الراوَنْدِيَّة (انظر ياقوت، جـ ١، ص ٦٨٠ ـ ٦٨١؛ الطبري، جـ ٣، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢؛ الفخري، طبعة القاهرة، ص ١٤٣)، ومن ثم أخذ يبحث عن موقع استراتيجي.

ووقع اختياره على موقع بغداد بعد استقصاء دقيق، لاعتبارات عسكرية واقتصادية ومناخية، فهو يقوم في سهل خصب صالح للزراعة على ضفتي النهر كلتيهما، وعلى طريق خراسان، وعند ملتقى عدة

طرق للقوافل، وفيه تقام أسواق شهرية، مما يوفر الميرة للجيش والناس. وكانت هناك شبكة من القنوات، تفيد منها الزراعة، ويمكن أن تكون بمثابة تحصينات للمدينة. وهذا الموضع في وسط بلاد الجزيرة، وينعم بجو صحي معتدل، وهو خال من البعوض إلى حد لا بأس به. وثمة قصص موضوعة عن فضائلها، وكيف أن القدر اختار المنصور لبنائها، ووجدت هذه القصص رواجاً فيما بعد.

وقدر لبغداد أن ترث بابل وسلوقية وطيسفون وأن تخملها جميعاً.

ويصف اليعقوبي (٢٧٨ هـ = ٨٩١ م) وابن الفقيه (٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م) بغداد في عصر متقدم وصفا تفصيلياً، بينما يصف سهراب (حوالى عام ٩٠٠ م) شبكة القنوات في المنطقة. وتبدو المدينة بتحصيناتها وتخطيطها الداخلي كأنها حصن كبير، فقد كان هناك أولا خندق عميق، عرضه ٤٠ ذراعاً (= ٢٠,٢٧ مترا)، يحيط بالمدينة، ثم رصيف من

الآجر، ثم السور الأول، وارتفاعه ١٨ ذراعاً (٩ أمتار) عند القاعدة، يليه رحبة عرضها ٥٦,٩ مترا (= ١٠٠ ذراع، وفيا يختص بالمقاييس انظر كتاب الخراج للريس) تركت خالية لأغراض الدفاع، ويليها السور الرئيسي من الآجر وارتفاعه ٣١,١٤ متراً وسمكه عند قاعدته ٥٠,٢ مترا وعند القمة ١٤,٢٠٢ مترا، وبه أبراج عظيمة يبلغ عددها ٢٨ برجاً بين كل بابين ما عدا الأبراج الواقعة بين بابي الكوفة والبصرة ففيها ٢٩ برجا. وبنيت، على كل باب، قبة تطل على المدينة، تحتها مساكن للحراس. ثم تليها رحبة عرضها ١٧٠,٧٠ مترا شيدت فيها بيوت. ولم يكن يسمح فيها بالبناء إلا للقواد والموالي المخلصين، ومع ذلك فقد كان لكل طريق بابان وثيقان يمكن إغلاقهما. وكان يلي ذلك سور ثالث بسيط يحيط بالرحبة الداخلية الفسيحة، حيث لم يشيد فيها سوى قصر الخليفة (باب الذهب)، والمسجد الجامع، والدواوين، ودور لأولاد الخليفة،

وسقيفتين، إحداهما لصاحب الحرس والأخرى لصاحب الشرطة. وقسمت المدينة إلى أربع مناطق متساوية، يقسمها طريقان يبدآن من أبوابها المتساوية الأبعاد، وذلك لضمان الإشراف على المدينة وتيسير حركة المواصلات في الداخل، ومع طرق القوافل في الخارج. وكان باب خراسان (ويسمى أيضاً باب الدولة) جهة الشمال الشرقي، وباب البصرة جهة الجنوب الغربي، وباب الشام جهة الشمال الغربي، وباب الكوفة جهة الجنوب الشرقي. وكان على من يريد أن يصل إلى الدائرة الداخلية أن يعبر خندقاً وأن يمر بخمسة أبواب، اثنان منها في السور الخارجي، وبابان ضخمان في السور الكبير وباب في السور الداخلي.

وروعيت في التخطيط أيضاً التقاليد الإمبراطورية القديمة. يؤيد ذلك وجود حجاب بين الخليفة وبين شعبه، والتخطيط الفخم للقصر والمسجد لإظهار عظمة الدولة الجديدة، وتوزيع الناس على

ربوع منفصلة يمكن إغلاقها وحراستها بالليل.

ووزع المنصور على بعض مواليه وقواده المخلصين قطائع بجوار الأبواب خارج المدينة، ومنح جنوده الأرباض لكي يبنوا عليها دوراً لهم، ووهب لبعض آل بيته أطراف المدينة (اليعقوبي، جـ ٢، ص ٤٤٩ - ٤٥٠؛ انظر ابن حوقل، جـ ١، ص ٢٤٠).

وكانت القبة الخضراء تحفة تفخر بها المدينة المدورة، وارتفاعها ٤٨,٣٦ مترا، وكانت تنهض شامخة فوق القصر، وعلى قمتها تمثال على شكل فارس يمتطي صهوة جواده. وقد خرت هاوية عام ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) في ليلة عاصفة، وربما نزلت عليها صاعقة. ومهما يكن من شيء فإن أسوارها ظلت قائمة فترة أطول، ثم تهدمت آخر الأمر عام ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م). واستخدم في بناء باب الذهب الرخام والحجر ومُوّه بابه بالذهب. وظل المقر الرسمي زهاء نصف قرن، ومع أن الرشيد انصرف عنه فإن الأمين أضاف إليه جناحاً جديداً، وأنشأ

حوله « ميدانا » وتعرض للكثير من الدمار إبان حصار بغداد عام ١٩٨ هـ (٨١٤ م)، ثم بطل استعماله مقراً رسمياً وأهمل.

وشيد جامع المنصور بعد القصر ولهذا انحرف قليلا عن القبلة. وهدمه الرشيد عام ١٩١ هـ (٨٠٧ م) وأعاد بناءه بالآجر. ووسع عام ٢٦٠ - ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) وزيدت مساحته أخيراً عام ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م). وأضاف المعتضد إليه صحناً آخر وجدد منه أجزاء. وكان للمسجد مئذنة، ثم احترقت عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م)، ثم أعيد بناؤها. وقد ظل المسجد الجامع في بغداد في عهد الخلافة، وغمره الفيضان عام ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م)، وقدّر له أن يبقى بعد هذا الفيضان وغزوة المغول.

ويعكس تخطيط بغداد أفكارا اجتماعية، فقد كان لكل ربع شخص مسؤول، وكانت تقيم به بصفة عامة جماعة متجانسة، من الناحية العنصرية (فرس، وعرب، وخوارزمية)، أو من الناحية المهنية. وكان

للجنود منازل خارج الأسوار، تقوم بصفة عامة شمالي المدينة وغربها، بينما كان التجار والصناع يتركزون جنوبي قناة الصراة في الكرخ (انظر ابن الفقيه، مخطوطة، ورقة رقم ٣٧ ب، ٣٣ ب، ٢٩ ب).

وللأسواق شأن كبير في تخطيط بغداد. ولقد كانت تقوم في مبدأ الأمر طاقات في كل طريق من الطرق الأربعة من السور الكبير إلى السور الداخلي، وفيها أقيمت حوانيت، ومن ثم قامت أربع أسواق. يضاف إلى هذا أن الخليفة أمر بأن يكون لكل منطقة من المناطق الأربع خارج السور رحبة تسمح بإقامة الأسواق فيها بحيث يكون في كل منطقة سوق كبيرة. ودفعت اعتبارات الأمن المنصور إلى أن يأمر بإزالة الأسواق من المدينة المدورة عام ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) ونقلها إلى الكرخ، فقد أراد أن يبعد العامة من المشاغبين عن المدينة وأن يتأكد من أن أبواب الأحياء لا تترك مفتوحة خدمة للأسواق بالليل، كما أمر باتخاذ الحيطة حيال أية جواسيس

يمكن أن يتسربوا إلى المدينة. ورسم خطة لبناء الأسواق بين قناة الصراة وقناة عيسى.

وكان لكل حرفة أو تجارة سوقها المنفصلة أو دربها. وكانت بين أسواق الكرخ سوق للفاكهة وسوق للقماش، وسوق للطعام، وسوق للصيارفة، وسوق للوراقين، وسوق للأغنام. ومع نمو المدينة نسمع عن تجار أتوا من خراسان وما وراء النهر ومَرو وبَلْخ وبُخارى وخُوَارَزْم، وكانت أسواقهم في حي الحربية، ولكل جماعة من هؤلاء التجار نقيب وشيخ. ويبدو أنه كان لكل حرفة شيخ تختاره الدولة.

وثمة رواية تذهب إلى أن المنصور أراد أن يهدم جانبا من القصر الأبيض في طيسفون لاستخدام الآجر في مبانيه، ولكن كفّ عن ذلك لأن النفقات لا تبرر القيام به. وهناك خبر آخر ينسب إلى المنصور أنه صاحب فكرة ترميم ذلك القصر، بيد أنه يقول إن الوقت لم يتسع أمامه لإنجازه، وكلتا

الروايتين من آثار مناظرات الشعوبية، فقد شيدت المدينة خاصة بالآجر.

ويقول اليعقوبي إن الخطة وضعت عام ١٤١ هـ (٧٥٥ م) بيد أن العمل لم يبدأ إلا في غرة جمادى عام ١٤٥ هـ كتاب الخطيب البغدادي. واشترك في وضع خطة المدينة أربعة من المهندسين المعماريين، وكان حجاج بن أرْطاة المهندس المعماري للمسجد.

وحشد المنصور ١٠٠,٠٠٠ عامل وصانع للعمل في إنشائها. وشقت قناة من نهر كرخايا إلى الموقع لتزويد الناس بالماء للشرب ولأغراض البناء (اليعقوبي، ص ٢٣٨). ويبدو أن القصر والمسجد والدواوين على الأقل قد تم بناؤها عام ١٤٦ هـ (٧٦٣ م)، وأن المنصور انتقل إلى بغداد. وما إن حل عام ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) حتى اكتمل بناء المدينة المدورة.

و «المدينة المدوّرة» التي شيدها المنصور نموذج

فريد في تخطيط المدن. فقد كانت مدورة، قلبها على أبعاد متساوية من المناطق المختلفة ومن اليسير التحكم فيها أو الدفاع عنها. ويعد هذا التخطيط في نظر الروايات العربية فريداً في بابه. ومهما يكن من شيء فإن الخطة المدورة ليست من الخطط غير المألوفة في الشرق الأدنى، فتخطيط ارُك يكاد يكون مدوّرا. والمعسكرات الحربية الآشورية أحيار مدورة يحيط بها سياج. ويحصي كـرزويـل ***Creswell*** إحـدى عشرة مدينة كانت بيضاوية الشكل أو مدوّرة، من بينها حرّان اكبتانا وهَتْـره، ودارابْجـرْد. وهنـاك شبـه عجيب بين دارابجرد ومدينة المنصور في تخطيطها.

ومن المحتمل أن المهنـدسين المعماريين للمـدينـة المدوّرة كانوا يعرفون مثل هذه الخطط. ويشير ابن الفقيـه إلى أن اختيـار التخطيـط انحصر بين المربـع والدائرة، وأن الأخيرة أقرب إلى الكمال، ومهما يكن من شيء فإن فكرة الحصن المدور هي التي أدت، على الأرجـح، إلى هـذا التخطيــط. ويقــول الطبري:

« وجعل (المنصور) أبوابها اربعة، على تدبير العساكر في الحروب».

وهناك أخبار متضاربة عن أبعاد مدينة المنصور، فيذهب خبر إلى أن المسافة بين باب خراسان وباب الكوفة ٨٠٠ ذراع (= ٤٠٥,١٢ متراً) ومن باب الشام إلى باب البصرة ٦٠٠ ذراع (٣٠٣,١٢ مترا). وفي خبر آخر عن وكيع أن المسافة بين كل بابين ١٢٠٠ ذراع (= ٦٠٨,٢٨ متراً). والحق إن كلا الخبرين يقدر حجم المدينة تقديراً أقل من الواقع. وفي خبر ثالث أورده رَباح، أحد من شيدوا المدينة، أن المسافة بين كل بابين ميل واحد (أو ٤٠٠٠ ذراع مرسلة أو ١٨٤٨ متراً). ويؤكد هذا التقدير القياس الذي نفذ تلبية لأوامر المعتضد وورد في خبر لبدر المعتضدي. وطبقاً لهذا القياس يكون قطر المدينة ٢٣٥٢ متراً. أما اليعقوبي فإنه يقدر المسافة بين كل بابين خارج الخندق بمقدار ٥٠٠٠ ذراع أسود (أو ٢٥٣٤,٥ متراً)، وهذا التقدير هو الأرجح في

ضوء هذه المعلومات.

وتضاربت الأخبار عن نفقة المنصور على بناء المدينة؛ فخبر يقدر النفقات بمبلغ ثمانية عشر ألف ألف، والمفهوم أنها من الدنانير. وفي خبر ثان أنها مئة ألف ألف درهم. ومهما يكن من شيء فإن البيان الرسمي الذي يستند إلى وثائق الخلافة يقرر أن المنصور أنفق على المدينة المدوّرة أربعة آلاف ألف درهم وثمانمئة وثلاثة وثمانين درهماً. وفي وسعنا أن نصل إلى هذا التقدير إذا أخذنا في الحسبان انخفاض أجر العمل وأثمان الميرة ودقة المنصور في الإشراف على حساباته.

وفي عام ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) شيد المنصور قصراً على نهر دجلة أسفل باب خراسان، تحيط به بساتين فسيحة، وأطلق عليه اسم قصر الخُلْد. وكان الموضع الذي أقيم به خالياً من البعوض مشهوراً بطيب هوائه. ولقد أطلق عليه هذا الاسم تيمناً بجنة الخلد.

ولم تلبث الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية التي انتهجها المنصور بتقسيم الجيش، والافتقار إلى الأرض الفضاء أن حملت الخليفة على إقامة معسكر لولي عهده المهدي على الضفة الشرقية لنهر دجلة. وكان معسكر المهدي ـ وقد أطلق عليه فيما بعد الرصافة تيمناً باسم قصر بناه الرشيد ـ حيث شيد القصر والمسجد، بمثابة النواة تحيط بها بيوت القواد والأتباع. وسرعان ما وجد الجانب التجاري مجالا له في أسواق باب الطاق. أما الجانب العسكري فيبدو بوضوح في قيام سور وخندق يحيطان بمعسكر المهدي. وقد بدأ العمل فيه عام ١٥١ هـ (٧٦٨ م) وانتهى عام ١٥٧ هـ (٧٧٣ م). وكانت الرصافة في موضع يكاد يكون مقابلا لمدينة المنصور.

واتسعت رقعة بغداد بسرعة فزادت مبانيها ونشطت فيها الحركة التجارية وازدادت ثروة وسكاناً. وتكالب الناس على السكنى في شرقي بغداد، فقد اجتذبتهم هبات المهدي ثم عطايا البرامكة

الذين كان لهم حي خاص عند باب الشَمّاسِيّة. وشيد يحي البرمكي قصراً فخماً وأطلق عليه الاسم المتواضع قصر الطين. وشيد جعفر قصراً عظيماً فاخراً أسفل شرقي بغداد، أصبح فيما بعد من نصيب المأمون. وامتدت رقعة الجانب الشرقي في عهد الرشيد من باب الشماسية (المواجه لباب قَطرَبُّل) إلى المخَرم (وحدُّها الجنوبي قنطرة المأمون الحديثة). ومن جهة أخرى فإن الأمين عاد من قصر الخلد؛ حيث كان يقيم الرشيد، إلى قصر باب الذهب، وجدّده، وأضاف إليه جناحاً، وأحاطه بمربع. وشيدت الملكة زبيدة مسجداً على نهر دجلة (نسب إليها) قرب القصور الملكية ومسجداً رائعاً آخر في قطيعتها شمالي المدينة. وشيدت أيضاً قصراً أطلقت عليه اسم القرار قرب قصر الخلد.

وامتدت رقعة الجانب الغربي بين باب قَطْرَبُّل في الشمال وحي الكرخ، الذي اتسعت رقعته بدوره حتى وصل إلى قناة عيسى الكبرى (وتصب هذه القناة في

نهر دجلة عند تلول خَشْم الدَّوْرَة)؛ ووصلت جهة الغرب إلى المُحَوَّل تقريباً. ويتغنى الشعراء بجمال بغداد، ويصفونها بأنها «جنة الله في أرضه». وقد اشتهرت ببساتينها الرائعة وريفها النضير، وقصورها الفخمة الشامخة المزينة بزخارف فاخرة على الأبواب وفي القاعات، ورياشها البديعة الثمينة.

وتلقت بغداد ضربة قاسية إبان النزاع الذي اشتجر بين الأمين والمأمون. ووصلت الحرب إلى المدينة عندما ضرب عليها حصار دام أربعة عشر شهراً. وأحنق صمود المدافعين طاهراً فأمر بهدم دورهم، ودمرت أحياء كثيرة. ما بين دجلة ودار الرقيق (شمالي باب خراسان)، وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة وأرجاء أبي جعفر وربض حُمَيْد ونهر كرخايا والكُناسة. وشملها الخراب على يد الغوغاء والخارجين على القانون والعيّارين. وتعرض للتدمير الشديد قصر الخلد وقصور أخرى، وهي الكرخ وبعض الربوع الواقعة على الجانب الشرقي.

ويعبر عن ذلك الطبري والمسعودي فيقولان: «وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد». وظلت الفوضى والقلاقل تضرب أطنابها في بغداد إلى أن عاد المأمون من مرو عام ٢٠٤ هـ (٨١٩ م). وأقام المأمون في قصره ووسع رقعته حتى لقد أضاف إليه حلبة للسباق وحيراً للوحوش (حديقة للحيوان) وأحياء لمواليه المخلصين. ثم وهب هذا القصر للحسن ابن سهل ـ ليصبح اسمه الحسني ـ الذي أوصى به لابنته بوران. وانتعشت بغداد من جديد في عهد المأمون. وشيد المعتصم قصراً في الجانب الشرقي. ثم قرر أن يبحث عن عاصمة جديدة لجيشه التركي الجديد، فقد كانت بغداد شديدة الازدحام لا تتسع لجنوده، وكان الأهلون وفرق الجند القديمة يكنون العداء لجنوده الأتراك، وخشي أن يحدث ما يكدر صفو الأمن. وفقدت بغداد أيام سامراء (٨٣٦ ـ ٨٩٢ م) اهتمام الخلفاء بها ولكنها ظلت أكبر مركز للتجارة والنشاط الثقافي.

وعانت بغداد أيضاً من القلاقل التي أثارها الأتراك، عندما انتقل إليها المستعين من سامراء، وحاصرتها قوات المعتز طوال عام ٢٥١ هـ (٨٦٥ - ٨٦٦ م). وامتدت رقعة الرصافة في هذه الفترة إلى سوق الثلاثاء (حتى شارع السموأل الحديث). وأمر المستعين بالله بتحصين بغداد ومد السور القائم على الجانب الشرقي من باب الشماسية إلى سوق الثلاثاء، والسور القائم على الجانب الغربي من قطيعة أم جعفر حول الربوع حتى قناة الصراة وحُفر حولها خندق طاهر المشهور. ودمرت أثناء هذا الحصار منازل وحوانيت وبساتين خارج السور الشرقي لضرورات الدفاع وتعرضت للدمار الشديد الأحياء الشرقية من الشماسية والرصافة والمخرم.

وعاد المعتمد أخيراً إلى بغداد عام ٢٧٨ هـ (٨٩٢ م) وكان قد طلب من بوران قصر الحسني، بيد أنها جددته وأثثته ليليق بخليفة، وسلمته له. ثم قام المعتضد بإعادة بناء القصر عام ٢٨٠ هـ

(٨٩٣ م) ووسع رقعة أراضيه وأضاف إليه أبنية جديدة وشيد سجوناً فوق مطاميره. وأضاف حلبة سباق ثم أحاط المنطقة بسور خاص وقدر له أن يصبح دار الخليفة، وظل بعد إضافة بعض المباني إليه، مقره الرسمي.

ثم وضع أساس قصر التاج على مقربة من نهر دجلة، بيد أنه رأى فيما بعد أنه يتعرض للكثير من الدخان من ناحية المدينة، فقرر أن يشيد قصراً آخر على بعد ميلين ناحية الشمال الشرقي. وشيد قصر الثريا الشاهق العظيم ووصله بقصر (الحسني) بنفق، وأحاطه ببساتين، وجلب إليه الماء من قناة موسى (انظر وصف ابن المعتز له في ديوانه، طبعة بيروت سنة ١٩١٣، ص ١٣٨ - ١٣٩). وأمر أيضاً بألا يزرع حول بغداد أرز أو نخيل ليبقى الهواء نقياً خالصاً. وبقي قصر الثريا في حالة جيدة حتى عام ٤٦٩ هـ (١٠٧٣ - ١٠٧٤ م) وهنالك اكتسحته مياه الفيضان ودمرته.

وبدأ الخراب يدب في المدينة المدوّرة وقتذاك. وأمر المعتضد بهدم سور المدينة، ولكن ما إن هدم قسم صغير منــه حتى علــت أصــوات الهاشميين بالشكوى، لأنه كان يرمز إلى مجد العباسيين، فتوقف المعتضد عن هدمه. ومهما يكن من شيء فإن الناس وسعوا بيوتهم شيئاً فشيئاً على حساب السور، وأدى هذا، آخر الأمر، إلى هدم السور وخراب المدينة.

وشيـد المكتفـي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ = ٩٠١ ـ ٩٠٧ م) قصر التاج وزوده بأبهاء وقبـاب ورصيـف على نهر دجلة. وبنى قبة شامخة نصف دائرية على أراضيه بحيث يستطيع أن يبلغ قمتهـا ممتطيـا ظهـر حمار. وفي عـام ٢٨٩ هـ (٩٠١ م) هـدم المكتفـي السجون الملحقة بالقصر وبنى «جامع القصر» الذي أصبح ثالث مسجـد جـامـع في المدينـة حتى عهـد المقتدر.

ولقد أضاف المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ = ٩٠٨

ـ ٩٣٢ م) مباني جديدة إلى القصور الملكية وزينها على نحو يفوق الوصف؛ ووجه عناية خاصة لـ « حير الوحوش » أي حديقة الحيوان. وقد أورد الخطيب وصفاً تفصيلياً مدهشاً لعام ٣٠٥ هـ (٩١٧ ـ ٩١٨ م). وكان السور المتين الذي يحيط بالقصور والممر السري الذي يصل ديوان المقتدر بأحد الأبواب من الوسائل الدفاعية الضرورية. ومن عجائب بغداد « دار الشجرة »، وفيها شجرة من الفضة في بركة واسعة لها ١٨ فرعاً وأغصان متعددة، عليها طيور وعصافير من الفضة أو مموهة بالذهب، تغرد في أوقات. وعلى كل جانب من البركة ١٥ تمثالا لفرسان يمتطون صهوات جيادهم ويتحركون في اتجاه واحد وكأنما يطارد بعضهم بعضاً (ص ٥٤). وهناك بركة أخرى من الزئبق مساحتها ٣٠ × ٢٠ ذراعاً تسبح فيها أربعة قوارب مموهة بالذهب وحولها بستان يفوق الوصف. وكان حير الوحوش يضم كل أنواع الحيوان، ففيه بيت الأسود ويضم مئة

أسد . وهناك قصر الفردوس بأسلحته الشهيرة. وقد أحصيت القصور فكانت ثلاثة وثلاثين قصراً داخل نطاق الأراضي الملكية (انظر الخطيب، ص ٥٣ ـ ٥٥ ؛ ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٦، ص ١٤٤).

وبلغت بغداد أوج ازدهارها في ذلك العهد، فقد امتد الجانب الشرقي منها خمسة أميال (الميل الواحد = ١٨٤٨ متراً) من الشماسية إلى دار الخلافة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي؛ الإصطخري، ص ٨٣). ويقول طيفور المتوفى عام ٨٩٣ م إن الموفق أمر بقياس أبعاد بغداد قبل عام ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م)، فوجد أن مساحتها ٤٣,٧٥٠ جريبا منها ٢٦,٥٠ جريبا في شرقي بغداد و ١٧,٥٠٠ جريب في غربي بغداد (ابن الفقيه، ورقة رقم ٤٤ ب، انظر ابن حوقل، جـ ١، ص ٢٤٣). وتذهب رواية أخرى لطيفور أن مساحة شرقي بغداد في عهد الموفق كانت ١٦,٧٥٠ جريبا (الجريب الواحد = ١٣٦٦ متراً مربعاً) وأن مساحة غربي بغداد كانت ٢٧,٠٠٠

جريباً ؛ وهذا التقدير هو الأرجح لأن غربي بغداد ظل حتى ذلك الوقت أهم من شرقيها. وفي رواية أخرى أن المساحة قدرها ٥٣,٧٥٠ جريبا منها ٢٦,٧٥٠ جريبا في الشرق و ٢٧,٠٠٠ جريباً في الغرب، والراجح أن الرقم الأخير يمثل المساحة في عهد المقتدر عندما اتسعت رقعة بغداد في الشرق اتساعاً كبيراً، ويكاد يكون طول بغداد من ناحيتيها في كل هذه الأخبار واحداً، وبالنسبة للرقم الأول يقدر طول بغداد كما أورده الإصطخري وطيفور، عام ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م)، بنحو ٧ ١/٤ كيلو متراً وعرضها بنحو ٦ ١/٢ كيلو متراً، بينما كان طولها في عهد المقتدر (٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م) حوالى ٨ ١/٢ كيلومتراً وعرضها حوالى ٧ ١/٤ كيلو متراً.

وهذا الموقع الجغرافي لبغداد ونشاط سكانها وتشجيع الدولة للتجارة وهيبة الخلافة، كل ذلك لم يلبث أن جعل بغداد مركزاً عظيما للتجارة (انظر

الدوري: **تأريخ العراق الاقتصادي**، ص ١٤٣ - ١٥٧). وأصبحت الأسواق معلما جوهريا من معالم الحياة فيها، في الرصافة وفي الكرخ بصفة خاصة. وكانت لكل تجارة سوقها الخاصة بها، ومن بين تلك الأسواق: سوق الفاكهة، وسوق القماش، وسوق القطن، وسوق الورّاقين - وكان بها أكثر من مئة حانوت - وسوق الصيارفة، وسوق العطارين في الكرخ. وكانت هناك أسواق للتجار الأجانب في سوق باب الشام. وعلى الجانب الشرقي كانت تقوم أسواق شتى تضم سوق الطيب لبيع الأزهار، وسوق للطعام، وسوق الصاغة، وسوق الغنم، وسوق الوراقين، وسوق التجار من الصين. وأقيم منذ عهد المنصور محتسب لمراقبة الأسواق ومنع الغش ومراجعة المكاييل والأوزان. وكان المحتسب أيضاً يراقب الحمامات وله أن يلاحظ المساجد. كما كان يمنع أوجه النشاط المخربة.

وكان لكل تجارة أو حرفة شيخ تعينه الدولة،

ولكل حرفة صانع وأستاذ. وكانت بغداد تصدر الأقمشة القطنية، والمنسوجات الحريرية، وبخاصة المناديل والميدعات والعمائم والبلورات المخروطة والفخار المزجج والزيوت المختلفة والأشربة والمعاجين وكانت تصنع أيضاً قمصانا مختلفة الألوان، وعمائم من نسيج رقيق وفوطا مشهورة. وكانت قمصانها القطنية الرقيقة البيضاء لا نظير لها. وكانت منسوجات السَقْلَطُون (قماش حريري) والمُلْحَم والعتّابي (من الحرير والقطن) مما اشتهرت به بغداد. وكانت سيوف ممتازة تصنع في باب الطاق. واشتهرت بغداد أيضاً بمصنوعاتها الجلدية وبصناعة الورق.

وكان تطور النظام المصرفي في بغداد ـ كما يتضح من الأعمال التي كان يقوم بها الصرافون والجهابذة ـ حافزا كبيراً للتجارة والصناعة، وكانت للصرافين أسواق خاصة، ولا سيما في الكرخ، وكانوا في مبدأ الأمر يقدمون خدماتهم للأهالي، على حين كان الجهابذة يعملون غالبا في خدمة الحكومة وموظفيها.

وأصبحت بغداد دولية من حيث سكانها ، فقد كان أهلها أخلاطاً من شتى الأمم والألوان والنحل ، ممن وفدوا إليها من أجل العمل والتجارة ، ومن المجندين والأرقاء ، أو ممن جاؤوا لممارسة مهن أخرى . وجدير بالذكر أن عامة الناس بدأوا في القيام بدور هام في حياة بغداد . أما عن ثورتهم على ارتفاع الأسعار عام ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) وجهودهم للحفاظ على النظام عام ٢٠١ هـ (٨١٦ م) إبان الاضطرابات التي حدثت عقب مصرع الأمين فانظر الطبري وابن الأثير . وبدأ نشاط العيّارين والشطار في هذا العهد .

وليس من اليسير تقدير عدد سكان بغداد ، ومن الواضح أن هناك مبالغات في تقدير عدد المساجد والحمامات (٣٠٠,٠٠٠ مسجد و ٦٠,٠٠٠ حمام في عهد الموفّق ، و ٢٧,٠٠٠ حمام في عهد المقتدر ، و ١٧,٠٠٠ حمام في عهد معز الدولة ، و ٥,٠٠٠ في عهد عضد الدولة ، و ٣,٠٠٠ حمام في عهد بهاء

الدولة، وقد أحصيت الحمامات عام ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) فوجد أن عددها ١,٥٠٠ حمام. وتؤكد الروايات أن كل حمام كان يكفي حوالى ٢٠٠ بيت. وإذا كان متوسط عدد الأفراد في كل بيت خمسة، فإن عدد سكان بغداد يكون وقتذاك قد بلغ حوالى المليون ونصف المليون من النسمات. وأمر المقتدرُ سنانَ بن ثابت باختبار الأطباء، وألا يمنح الإجازة بمزاولة المهنة إلا لمن يصلح لها. وكانت النتيجة منح الإجازة لثمانمئة وستين طبيباً، فإذا أضفنا إلى هؤلاء، من يعملون من الأطباء في البيمارستانات الحكومية والذين لم يحصلوا على إجازة بالعمل، فإن عدد الأطباء يصل - فيما يرجح - إلى الألف طبيب. وقد بلغ عدد المصلين يوم الجمعة الأخيرة من الشهر في مسجد المنصور ومسجد الرصافة ٦٤,٠٠٠ مصلٍّ مقدرا بالمساحة المخصصة للصلاة. وقد أحصى عدد القوارب حوالى نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فوجد أنه ٣٠,٠٠٠ قارب. ونستطيع من

هذه الأرقام ومن مساحة بغداد أن نقدر عدد سكان بغداد في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بمليون ونصف المليون من النسمات، ويتفق هذا الرقم مع ما يذكره الإتليدي، أحد المعاصرين.

وكانت في بغداد أحياء أرستقراطية مثل الظاهر، والشمّاسية، والمأمونية، ودرب عون؛ وأحياء فقيرة مثل قطيعة الكلاب ونهر الدَّجاج (أبو القاسم البغدادي، ص ٢٣، ١٠٦). وكانت البيوت من طابقين، أما بيوت العامة فمن طابق واحد. وكانت بيوت الأغنياء لها حمامات وتقسّم عادة إلى ثلاثة أقسام يحيط بها سور: قسم للسيدات، وحجرات للضيفان، وقسم للخدم، وكانت البساتين تحظى بعناية خاصة، وكانت السجاجيد والأرائك والستائر والوسائد عناصر ملحوظة في الأثاث، وكانت المراوح والبيوت المبردة خاصة والسراديب تستخدم في الصيف. وكانت النقوش ورسوم الحيوان والنبات أو الوجوه الآدمية تزين المداخل.

وثمة سمة خاصة من سمات الحياة في بغداد، هي العدد الضخم من المساجد والحمامات كما سبق أن أوضحنا.

وكانت بغداد المركز العظيم للثقافة، فقد كانت موئلاً للمذهبين الحنفي والحنبلي، وكانت مركزا للترجمات، في بيت الحكمة وخارجه، وموطناً لبعض التجارب العلمية. وكانت مساجدها، وبخاصة جامع المنصور، ومراكز كبيرة للدرس والتحصيل. وإن العدد الكبير من مكتبات الوراقين التي كانت تتحول أحياناً إلى «صالونات أدبية» ليدل على مدى النشاط الثقافي. وشعراؤها ومؤرخوها وعلماؤها أكثر من أن نحصيهم. وفي وسعنا أن نشير إلى تاريخ بغداد للخطيب لنرى العدد الكبير من العلماء، في ميدان واحد، الذين يرتبطون ببغداد. وكان العلم لا يلقى كل تشجيع من الخلفاء فحسب بل كان يلقاه من الوزراء والكبراء أيضاً. والحق إن فترة الإبداع في مجال الثقافة الإسلامية تقترن بمدينة بغداد. فقد

أسست فيما بعد إبان هذه الفترة دور كتب عامة كانت مراكز للدرس والتحصيل، وأشهرها دار العلم التي أنشأها أبو نصر سابور بن أردشير. وعندما ظهر نظام المدرسة عقد لبغداد لواء الزعامة بمدرستيها النظامية والمستنصرية، وأثرت في نظام المدرسة، من جهة المناهج العلمية والهندسة المعمارية على السواء.

وحظيت البيمارستانات بالكثير من العناية، وبخاصة في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) والقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). واشتهر من بينها بيمارستان السيّدة (٣٠٦ هـ = ٩١٨ م) والبيمارستان المقتدري (٣٠٦ هـ = ٩١٨ م) والبيمارستان العَضُدي (٣٧٢ هـ = ٩٨٢ م)، وكذلك أنشأ الوزراء وغيرهم البيمارستانات. وكان الأطباء يخضعون في بعض الأحيان للإشراف (انظر ما سبق).

وكانت في بغداد ثلاث قناطر في عهد الرشيد (اليعقوبي، جـ ٢، ص ٥١٠). وكانت القنطرتان الشهيرتان تقومان قرب باب خراسان وفي الكرخ.

وبنى الرشيد قنطرتين في الشماسية، ولكنهما دمرتا إبان الحصار الأول لبغداد. وظلت القناطر الثلاث قائمة حتى نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). ويبدو أن القنطرة الشمالية دمرت، ويتحدث الإصطخري عن قنطرتين فحسب. وفي عام ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) شيد بهاء الدولة قنطرة عند سوق الثلاثاء (مِشْرعة القطّانين) لتصبح القنطرة الثالثة. وهذا يدل على تحول الاهتمام من شمالي بغداد إلى سوق الثلاثاء.

وكانت الحياة في بغداد تنعم بالاستقرار حتى عهد الأمين. وأظهر الحصار الأول لبغداد وجود عناصر مشاغبة بين العامة، وبدأ الفيضان والحريق أيضاً يقومان بدورهما اعتباراً من الربع الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وأتى الفيضان عام ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) على ٧,٠٠٠ بيت في الكرخ، وعانت بغداد كثيراً من الفيضان عام ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) وعام ٣٢٨ هـ (٩٢٩ م). وفي عام ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) اكتسح الفيضان ما وراء باب

الكوفة ووصل إلى داخل المدينة. ولا شك أن إهمال القنوات وبخاصة في عهد «أمير الأمراء» (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ = ٩٣٥ - ٩٤٥ م) أدى إلى حدوث فيضانات كما أدى إلى خراب ناحية بادوريًا. ومن ثم فإننا نجد الندرة في الحاجيات الضرورية والطاعون في حكم النادر قبل عام ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) إلا أنهما تكررا بعد ذلك، أما ندرة هذه الحاجيات التي سادت عام ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) فكانت نتيجة الاحتكار، وسرعان ما تُغُلِّب عليها. وقد حدث ذلك في الأعوام ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) و ٣٢٦ هـ (٩٣٧ م) و ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م؛ مع طاعون) و ٣٣٠ هـ (٩٤١ م) و ٣٣١ هـ (٩٤٢ م؛ مع طاعون) و ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) و ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) وأصبحت الحياة لا تطاق.

وفي عامي ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) و ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) عانت الكرخ كثيراً من الحرائق. وامتدت نيران الكرخ عام ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) إلى أحياء

العطارين وباعة المروخ والصاغة وغيرهم، وكان في الوسع مشاهدة آثارها بعد ذلك بسنين عديدة.

وكان عهد بني بويه شديد الوطأة بعض الشيء على بغداد. وأصلح معز الدولة عام ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) أول الأمر بعض القنوات في بادوريَا، وأدى هذا إلى تحسين أحوال المعيشة. وأعقبت هذا فترة من الإهمال، وأصبح كثير من القنوات التي كانت تروي غرب بغداد خراباً. وقام عضد الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ = ٩٧٧ - ٩٨٢ م) بتطهيرها، وأعاد بناء القناطر والأهوسة. ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن مثل هذه الجهود.

وكانت أعمال البناء محدودة. وفي عام ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) شيد معز الدولة قصراً كبيراً عند باب الشماسية وجعل أمامه ميداناً فسيحاً وبه رصيف ميناء وبساتين جميلة. واستولى على الأبواب الحديدية السبعة للمدينة المدورة من أجل هذا القصر، وأنفق حوالى مليون دينار (١١ مليون درهم)، ومهما يكن من

شيء فإن هذا القصر هدم عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م). وأعاد عضد الدولة بناء بيت سَبُكْتَكِين، حاجب معز الدولة في المخرم العليا، وأضاف إليه بساتين واسعة، وجلب إليه الماء بشق قنوات من نهر الخالص، وأنفق على ذلك أموالا طائلة، وأصبح دار الإمارة أو المقر الرسمي لبني بويه.

ووجد عضد الدولة أن بغداد قد أصبحت شائهة المنظر، فأمر بتجديد بيوتها وأسواقها وأنفق الكثير من الأموال لإعادة بناء مساجدها الجامعة، ورمم الأرصفة على ضفاف نهر دجلة وأمر الأثرياء بترميم بيوتهم على نهر دجلة، وغرس البساتين في الخرائب التي لا مالك لها. ووجد أن القنطرة الوسطى ضيقة واهنة فجددها ووسعها. وشيد عام ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) البيمارستان العضدي، وعين له الأطباء والمشرفين وأمناء المخازن، وزوده بكميات كبيرة من الأدوية والأشربة والآلات والأثاث. وحبست عليه

الأوقاف للإنفاق منها على صيانته (ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٧، ص ١١٢ - ١١٤).

ومع ذلك فإن بغداد تدهورت في عهد بني بويه ويقول التنوخي إن بغداد انكمشت عام ٣٤٥ هـ الموافق ٩٥٦ م إلى عشر ما كان عليه حجمها في عهد المقتدر، وأهملت مدينة المنصور ولم يعد فيها حياة وقتذاك. وكان معظم الأحياء في غربي بغداد على هيئة زرية، كما كانت قد تقلصت. وكانت الكرخ أعظم الأحياء ازدهاراً في غربي بغداد، وفيها كان التجار يتخذون حوانيت للتجارة. ولهذا فإن الجانب الغربي عرف آنئذ باسم الكرخ.

وأما الجانب الشرقي من المدينة فكان أكثر ازدهاراً، وكان الكبراء يقيمون فيه عادة. وكانت المناطق المزدهرة في هذا الجانب هي باب الطاق حيث السوق الكبرى ودار الإمارة في المُخرم وقصور الخليفة في الطرف الجنوبي. ووصلت بعض الدور الصغيرة الشأن إلى كَلواذَى. ورأى ابن حوقل أربعة

مساجد جامعة هي: مسجد المنصور، ومسجد الرصافة، ومسجد براثا، ومسجد دار السلطان، ثم أصبح مسجد القطيعة ومسجد الحربية عام ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) وعام ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) مسجدين جامعين.

وشاهد ابن حوقل قنطرتين، إحداهما في حالة سيئة. ويبدو أنه كانت هناك ثلاث قناطر في عهد معز الدولة، إحداهما عند باب الشماسية (قرب قصره) والثانية عند باب الطاق والثالثة عند سوق الثلاثاء، ونقلت الأولى إلى باب الطاق، وأصبح هناك قنطرتان، ثم ساءت حال إحداهما.

وعانت بغداد كثيراً من شغب العامة، ومن الخلافات الطائفية التي شجعها بنو بويه، ومن العيّارين. وتتحدث مصادرنا كثيراً عن جهل العامة واستعدادهم لتلبية أي دعوة، وفطرتهم الخيّرة وعدم احترامهم للقانون. وفي عام ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) حظر المعتضد على القصّاص والعرّافين أن يجلسوا في

الطرقات أو في المساجد ومنع الناس من أن يتجمعوا حولهم أو أن يدخلوا معهم في جدل (ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٥، ص ١٢٢، ١٧١).

وكان الحنابلة مصدر القلاقل قبل عهد بني بويه، فقد حاولوا في بعض الأوقات أن يهذبوا الأخلاق بالقوة. وازدادت في هذه الفترة الاضطرابات الطائفية، وتسببت في كثير من الخسارة في الأموال والأرواح. وأعلن بنو بويه أن العاشر من المحرم يعد يوم حداد عام وأمروا بإغلاق الأسواق، وشجعوا العامة على السير في مواكب مع النساء وهم يلطمون وجوههم. ومن جهة أخرى جُعل الغدير في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عيداً تقام فيه الاحتفالات. وأدى هذا إلى أن يختار أهل السنة يومين مختلفين، يقع كل منهما بعد ثمانية أيام من اليومين المذكورين. وأصبح من الحوادث المألوفة في هذا العصر، نشوب معارك بين الشيعة وأهل السنة، ابتداء من عام ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) حين تعرضت

الكرخ للسلب والنهب. وفي عام ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) نشبت معارك بين الفريقين أدت إلى التخريب وإشعال النار في باب الطاق. وفي عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) أدت القلاقل في الكرخ إلى إحراقها وهلاك ١٧,٠٠٠ من أهلها وتخريب ٣٠٠ حانوت وكثير من المنازل بفعل النيران. وأحرقت النار عام ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) جانبا كبيراً من الكرخ.

ونشبت الفتن في كثير من الأحياء وشبت فيها النار مراراً عام ٣٨١ هـ (٩٩١ م). وفي عام ١٠١٦ م احترق حيّا نهر طابق وباب القطن وجانب كبير من حي باب البصرة. ودمرت أسواق كثيرة عام ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) إبان الفتن. وألحق العيارون ـ الذين نشطوا للعمل بصفة خاصة طوال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى نهاية هذا العهد ـ بالمدينة دماراً أكبر وأشاعوا فيها البلبلة والاضطراب. ويسيء المؤرخون فهم طبيعة فعالهم ويظهرونهم بمظهر اللصوص والسرّاق، بيد أن

فتنتهم إنما كانت وليدة الأحوال المعاشية القاسية التي كانوا يعانون منها إلى جانب الفوضى السياسية، وكانت ثورتهم موجهة ضد الأغنياء والحكام، وهذا يفسر لنا لم كان نشاطهم موجها أولا ضد الأغنياء والأسواق والشرطة والأعيان. ولقد تمسكوا بمبادىء أخلاقية لم يحيدوا عنها مثل الشرف وإغاثة الفقراء والنساء والتعاون والصبر والجلد. وارتبط نظام الفتوة من بعد بحركتهم إلى حد ما.

وكان لهم نظام في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ومن الألقاب التي كانت تطلق على زعمائهم، المتقدّم والقائد والأمير، وكانوا يقيمون حفلات خاصة عند دخول أحد في زمرتهم.

وحرص العيارون على أن يبقى الناس في فزع مستمر على حياتهم وأموالهم. وفرضوا مكوساً على التجار في الأسواق وعلى المارة في الطرقات وسلبوا عابري السبيل ودأبوا على اقتحام البيوت بالليل ونشروا يد التخريب بحد السيف والنار، وأحرقوا

كثيراً من الأحياء والأسواق وبخاصة باب الطاق وسوق يحيي (في شرقي بغداد) والكرخ، لأنها كانت وقفاً على الأثرياء. واضطر الناس إلى إغلاق بوابات حاراتهم، ولزم التجار جانب الحذر بالليل. وأدى الإخلال بالنظام والسلب والنهب إلى ارتفاع الأسعار. ودعا واعظ ربه عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) فقال: رباه! خلّص البلاد من الدهماء والرعاع. وكان البُرْجُمي، وهو مقدم عيارين قبيح الصيت، يحكم بغداد في الواقع أربعة أعوام من سنة ٤٢٢ - ٤٢٥ هـ (١٠٣٠ - ١٠٣٣ م) وأعمل فيها يد السلب والنهب. وكانت الحكومة حيالهم لا حول لها ولا طول وتركوا وشأنهم، يفرضون الإتاوات والمكوس اتقاء شرهم. وهجر خلق كثير أحياءهم ورحلوا عنها طلباً للنجاة. وظل العيارون ينشرون الرعب والفزع حتى قيام السلاجقة.

وفي عام ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) دخل طُغْرِل بك بغداد. وانتهج السلاجقة سياسة تخالف على طول الخط

السياسة التي سار عليها بنو بويه، وشجعوا اهل السنة. واستولى البساسيري، أحد العصاة، على بغداد عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م)، باسم الفاطميين، وهزمته قوات السلاجقة ولقي حتفه على يديها عام ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م). واتخذت بغداد، في هذا العهد، صورة لم تتغير بعد ذلك إلا قليلا.

ووسع طُغْرِل بك عام ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) رقعة دار الإمارة، وهدم الكثير من المنازل والحوانيت، وأعاد بناء الدار وأحاطها بسور وأحرقت عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) عن آخرها وأعيد بناؤها، وأصبحت تعرف باسم دار المملكة، وأعيد بناؤها عام ٥٠٩ هـ (١١١٥ م) بيد أنها احترقت قضاء وقدراً عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) وشيدت بدلا منها دار جديدة، ووسع ملكشاه مسجد المخرّم القريب من القصر وأعاد بناءه عام ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) وأطلق عليه منذ ذاك اسم جامع السلطان؛ ورمم عام

٥٠٢ هـ. وتم بناؤه آخر الأمر عام ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م).

وتركزت الحياة في شرقي بغداد حول قصور الخليفة. وشجع المقتدي (٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ = ١٠٧٤ ـ ١٠٩٤ م) البناء؛ وازدهرت الأحياء الواقعة حول القصور ـ مثل البَصَلِيَّة والقطيعة والحلبة والأجمة إلخ. كما شيد أيضاً دار الشاطئية بجوار قصر التاج القديم. وهدم قصر التاج عام ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م) وأعيد بناؤه. وكانت هذه الأحياء غير مسورة وتعرضت كثيراً للفيضان عام ١٠٧٠ م. وبنى المستظهر عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) سوراً حول ما يسمى بحي الحريم. ثم أعاد المسترشد عام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) بناءه، وأقام به أربعة أبواب وجعل عرضه ٢٢ ذراعاً، وأحاط الفيضان بالسور عام ٥٥٤ هـ (١١٥٩ م) وأحدث فيه صدعاً ودمر كثيراً من الأحياء. ورُتِّب الصدع وشُرِع في حفر سد، أُكمل فيما بعد حول السور. وحدثت محاولات أخرى

لإعادة بناء السور أو ترميمه في عهدي الناصر والمستنصر. وحدد هذا السور تخوم شرقي بغداد حتى نهاية العصر العثماني.

وكانت بغداد في حالة ضعف وانحلال أثناء هذا العصر، وعاشت على مجدها الماضي. وطرأت تغيرات كثيرة على تخطيطها اعتباراً من النصف الثاني للقرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). فقد تخربت أحياء كثيرة في غربي بغداد، وأصبحت البساتين والبيوت السابقة خراباً بلقعا. ولعل هذا يفسر لنا الزيادة في عدد المساجد الجامعة. وأهملت الأحياء القديمة: الشماسية والرصافة والمخرّم.

ويتحدث بنيامين التطيلي ***Benjamin of Tudela***، الذي زار بغداد حوالى عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) عن عظمة قصر الخليفة، بسوره وبساتينه وحير وحوشه وبركته. ويمتدح البيمارستان العضدي وأطباءه الستين ومصحته الخاصة بالمجانين. ووجد ٤٠,٠٠٠ يهودي في بغداد، لهم عشر مدارس. ووصف ابن جبير

بغداد عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م)، ولاحظ ما هي عليه من انحلال شامل وانتقد صلف أهلها. وكان جزء كبير من الجانب الشرقي قد أضحى خراباً. ومع ذلك فقد كان فيه سبعة عشر حيّا منفصلا، كلها تضم حمّامين أو ثلاثة أو ثمانية. وكان مقر الخليفة بما فيه من قصور فخمة وبساتين رائعة يشغل نحو ربع المساحة تقريباً أو أكثر. وكان هذا الجانب آهلا بالسكان وفيه أسواق عامرة. وكان القُرَيَّة أكبر الأحياء (من المحتمل جداً أنه كان بين قنطرة الأحراس الحديثة ورأس القرية) وعلى مقربة منه رَبْض المُرَبَّعة (ولعله كان بالقرب من سيدي سلطان علي الآن)، وكان به ثلاثة مساجد جامعة هي جامع السلطان شمالي السور، ومسجد الرصافة على مسيرة ميل شمالي الأخير. وجامع الخليفة. وكان به أيضاً حوالى ثلاثين مدرسة كلها تشغل مباني رائعة، وحبست عليها أوقاف كثيرة وقدمت لها هبات للإنفاق منها على صيانتها ولمواجهة نفقات الطلاّب.

وأشهرها مدرسة النظامية التي أعيد بناؤها عام ١١١٠ م.

ويصف بنيامين السور الذي بناه المسترشد، والذي كان يحيط بالشرقية، بأن له أربعة أبواب:

١ - باب السلطان جهة الشمال (سمي فيما بعد باب المعظَّم)، ٢ - باب الظفرية (في الشمال الشرقي) وسمي فيما بعد الباب الوسطاني، ٣ - باب الحَلَبَة (في الشرق) وأصبح اسمه فيما بعد باب الطلسم. ٤ - باب البَصَلِيَّة (في الجنوب) وعرف فيما بعد باسم الباب الشرقي. وأحاط السور بالشرقية على هيئة نصف دائرة يصل إلى نهر دجلة من الطرفين. ويتحدث عن حي أبي حنيفة الآهل بالسكان، بينما كانت الأحياء القديمة: الرصافة والشماسية والمعظم والمخرم خراباً بلقعا. وانتشر الخراب في غربي بغداد بكل مكان. ويتحدث بنيامين هنا عن حي الكرخ على اعتبار أنه مدينة مسورة وعن حي باب البصرة الذي كان يضم مسجد المنصور الجامع وما بقي في

المدينة القديمة. وكان بجانب نهر دجلة حي الشارع الذي كان يؤلف هو والكرخ وباب البصرة والقُرَيَّة أكبر أحياء بغداد. وبين حي الشارع وحي باب البصرة، حي سوق المارستان، وهو أشبه بمدينة صغيرة، وفيه البيمارستان العضدي المشهور، المزود بما يكفي من الأطباء والموظفين والمؤن. وننوه بين الأحياء الأخرى بحي الحربية، باعتباره في أقصى الشمال، وحي العَتّابية، المشهور بقماش العتابي، وهو نسيج من القطن والحرير. ويتحدث ابن جبير عن ٢٠٠٠ حمّام وأحد عشر مسجداً جامعاً في بغداد.

وكانت هناك قنطرة واحدة قرب قناة عيسى، في عهد المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ = ١١١٨ ـ ١١٣٤ م) ونقلت فيما بعد إلى باب القُرَيَّة، وأقيمت قنطرة جديدة في باب القرية أيام المستضيء (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ = ١١٧٠ - ١١٧٩ م)، وأعيدت القنطرة القديمة إلى موضعها قرب قناة عيسى، ولم يشهد ابن جبير إلا القنطرة

الأولى، ولكنه يؤكد أنه كانت هناك عادة قنطرتان ويؤكد هذه الحقيقة ابن الجوزي، الذي كتب مصنفه قبل سقوط بغداد مباشرة.

ويسوق ياقوت (٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م) بعد ذلك بنصف قرن، بعض المعلومات المفيدة، فهو يصور غربي بغداد على أنه مجموعة من الأحياء، لكل منها سور وتفصله عن غيره أرض خراب بلقع. والأحياء المعروفة هي الحربية والحريم، والطاهري في الشمال، وچهارسوج مع الناصرية والعَتّابيين ودار القز في الجنوب الغربي، والمحوَّل جهة الغرب، وقصر عيسى جهة الشرق، والقُريّة والكرخ في الجنوب.

أما في شرقي بغداد فقد تركزت الحياة في الأحياء الواقعة حول «حريم دار الخليفة» الذي كان يشغل حوالى ثلث المساحة المحصورة بين الأسوار. وكان بين الأحياء الكبيرة المزدهرة حي باب الأزج بأسواقه، والمأمونية التي تليه، وسوق الثلاثاء، ونهر المُعَلّى والقُرَيّة.

وازدادت المساجد الجامعة في الغربية (غربي بغداد) في هذا العصر، مما يدل على أن الأحياء كانت أشبه بالأحياء المستقلة. ويتحدث ابن الجوزي عن ستة منها بين عامي ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) و ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) علاوة على جامع المنصور. ورمم المستنصر مساجد الكرخ. وجُدّد جامع القصر عام ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م)، وجدده المستنصر مرة أخرى عام ٦٧٣ هـ (١٢٣٥ م). وشُيد جامع القمرية (لا يزال قائماً) عام ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م).

ويتضح سلطان الصوفية من العدد الكبير من الرباطات التي شيدت في القرن الأخير من عهد الخلافة. وقد بناها الخلفاء أو أقاربهم.

وحظي تأسيس المدارس (الكليات) بالكثير من العناية. ويمكن تفسير هذه الحركة باديء ذي بدء بالنهضة الدينية التي قامت بين الشافعية وبالحاجات السياسية والإدارية، بيد أنها استمرت حركة ثقافية، وشهد ابن جبير ثلاثين مدرسة في شرقي بغداد.

وأنشئت مدارس أخرى بعد زيارة ابن جبير وأشهرها مدرسة النظامية التي أنشئت عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٦ م) ومدرسة أبي حنيفة التي أنشئت في العام نفسه. والمستنصرية التي أنشأها المستنصر عام ٦٣١ هـ (١٢٣٣ م) وظلت قائمة حتى القرن السابع عشر. وتخصصت كل هذه المدارس في مذهب من المذاهب الأربعة ما عدا مدرستي المستنصرية والبشيرية (أنشئت عام ٦٥٣ هـ = ١٢٥٥ م) فقد كانتا تعنيان بتدريس فقه المذاهب الأربعة. وكان هناك مكتب للأيتام، أنشأه شمس الملوك. وشيدت دور ضيافة عام ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) في جميع أحياء بغداد لتقديم الطعام للفقراء في رمضان.

وعانت بغداد أثناء هذه الفترة من الحريق والفيضان والفتنة. ففي عام ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) أحرق حيّا الكرخ وباب المحوّل ومعظم أسواق الكرخ عن آخرها. وفي عام ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) أحرق حي الكرخ وبغداد القديمة. وأحرقت الأحياء

والأسواق القريبة من قناة المعلّى ودار الخلافة أكثر من مرة. وانتشر الحريق عام ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) من أحياء مجاورة إلى دار الخلافة والأسواق المجاورة له، وشبت حرائق أخرى في تلك الأحياء عام ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) وعام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) وعام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م).

وكان نشاط العيّارين كبيراً إلى حد ما أيام السلاجقة، فقد أخذوا ينهبون الحوانيت والبيوت ويعبثون بالأمن (بالنسبة للفترة بين عامي ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م و ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م).ولم تنقطع فتن العامة ومعاركهم الطائفية (الحنابلة ضد الشافعية، وأهل السنة ضد الشيعة) وكانت سبباً في إزهاق الكثير من الأرواح وخراب الممتلكات. ويتحدث ابن الأثير عن صلح مؤقت عام ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) ويضيف قائلا: «الشر منهم (أي العامة) على طول الزمان»، ولم تدم هذه الهدنة طويلا، واستمرت المنازعات والمعارك وأصبحت مروعة في عهد

المستعصم. وفي عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) نشبت معارك بين حي المأمونية وحي باب الأزج الذي يضم سوق النظامية، وبين حي المختارة وحي سوق السلطان، وبين حي قَطُفْتا وحي القُرَيَّة (في غربي بغداد)، وقتل كثيرون ونهبت حوانيت. وما إن حل عام ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) حتى كانت الأمور قد ساءت إلى حد كبير ونشبت معارك بين حي الرصافة (وسكانه من أهل السنة) وحي الخضيريين (وسكانه من الشيعة) وسرعان ما أيد أهالي حي باب البصرة حيَّ الرصافة بينما أيد حي الكرخ الآخرين (ابن الفوطي، ص ٢٩٨ - ٢٩٩)، وتدل هذه المعارك على نزعة التنافس بين الأحياء التي ازدادت بسبب ضعف هيمنة الحكومة. ولما تجددت المعارك بين حي الكرخ وباب البصرة قام الجند الذي أرسلوا لقمعها بنهب الكرخ فازداد الموقف سوءاً (المصدر المذكور، ص ٢٦٧ - ٢٧٧). وبلغت المعارك ذروتها عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) عندما قتل أهالي الكرخ بعض خصومهم، وانضم الجند، الذين أرسلوا لحفظ النظام،

إلى جماهير العامة ونهبوا الكرخ وأحرقوا بها عدة حوانيت وقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا النساء. وأعقب هذا الأخذُ بالثأر، ولكن أحداً لم ينس المأساة، ونشط العيّارون نشاطاً كبيراً في هذا العهد فنهبوا الحوانيت وسطوا على البيوت بالليل، بل إن مدرسة المستنصرية سرقت مرتين.

وكانت الحكومة أضعف من أن تستطيع حفظ النظام، وتكرر حدوث الفيضان مما يدل على ضعف الحكومة وإهمال الري، وفي عام ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) وصلت مياه الفيضان إلى النظامية والأراضي المجاورة لها وخربت بعض الأحياء. وأحدق الفيضان بشرقي بغداد عام ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) وهدمت مياهه جزءاً من السور ونفذت إلى أجنحة الحريم، وغمرت مياه الفيضان أيضاً الرصافة وسقط الكثير من بيوتها، وأغرق غربي بغداد وسقطت معظم المنازل اللهم إلا في جانب من باب البصرة والكرخ. وانهارت البيوت الواقعة على النهر ودخلت مياه الفيضان إلى بغداد عام

٦٥١ هـ (١٢٥٣ م) ثم دخلت مرة أخرى عام ٦٥٣ هـ (١٢٥٥ م) وهنالك انهار عدد كبير من المنازل وأتلف الزرع. وحدث أسوأ فيضان عام ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) عندما أحدقت مياه الفيضان بكلا الجانبين ووصلت إلى داخل الأسواق في شرقي بغداد ودار الخلافة والنظامية (ابن الفوطي ص ١٨٦ - ١٨٧، ٢٦٧، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٧٧، ٣٠٤، ٣١٧ - ٣١٩). وهكذا تحالفت الطبيعة والإنسان على اضمحلال بغداد.

وغزا المغول بغداد بعد عامين. واستسلم الخليفة المستعصم يوم ٤ صفر عام ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير عام ١٢٥٨ م) بلا قيد ولا شرط. وظل السيف يعمل في رقاب أهلها بلا تمييز ما يربو على أسبوع. وشاركتهم في هذا المصير المحزن أعداد كبيرة من أهالي الريف الذين تقاطروا إلى بغداد قبل الحصار، ويتراوح عدد من قتلوا بين ٨٠٠,٠٠٠ ومليونَي نسمة، وأخذ عدد القتلى يرتفع بمضي الزمن. ويقول الرحالة الصيني

تشانغ ته سنة (١٢٥٩ م) إن عشرات الألوف من الناس قتلوا، ومن الواضح أنه استقى معلوماته من مصادر مغولية. ومن ثم يصعب تحديد أي رقم، ولكن الراجح أن عدد القتلى يتجاوز مئة ألف. وتخربت أحياء كثيرة بسبب الحصار أو السلب والنهب أو الحريق، وأحرق مسجد الخلفاء وضريح الكاظميين. ومهما يكن من شيء فإن بغداد نجت من الدمار التام، ولعل الفتوى التي أكره العلماء على إصدارها بأن كافرا عادلا خير من إمام ظالم قد ساعدت على النجاة من هذا الدمار التام. وقد أمر هولاكو قبل أن يغادر بغداد بإصلاح بعض المباني العامة. فأعاد ناظر الوقف بناء جامع الخلفاء وعني بإعادة فتح المدارس والرباطات. وعانت الثقافة كثيراً ولكنها لم تقتلع من جذورها. وأصبحت بغداد حاضرة ولاية من جميع الوجوه.

وظلت بغداد حتى عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ - ١٣٤٠ م) خاضعة لحكم الإيلخانية، يدير أمورها

وال ومعه شحنة وحامية عسكرية.

وأحصى المغول سكان بغداد بالعشرات والمئات والآلاف لفرض الضرائب عليهم. وفرض على الجميع أداء ضريبة رؤوس ما عدا المسنين والأطفال، وظلت هذه الضريبة تجبى نحو عامين. وبدأت بغداد تنتعش شيئاً فشيئاً بعد أن عهد بإدارتها في الغالب للفرس؛ ويرجع الكثير من هذا الانتعاش إلى السياسة التي اتبعها عطاء ملك الجويني، وقد ظل والياً عليها فترة تقرب من ٢٣ عاماً (٦٥٧ هـ = ١٢٥٨ م - ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م). وفي عهده أعيد بناء مئذنة جامع الخلفاء وسوق النظامية، ورممت مدرسة المستنصرية وأضيف إلى ذلك نظام مائي جديد (ابن الفوطي، ص ٣٧١). ورمم مسجد الشيخ معروف والقمرية.

واستأنفت العمل بعض المدارس القديمة، وبخاصة مدارس النظامية والمستنصرية والبشيرية والتَتَشِيَّة ومدرسة الأصحاب. وأنشأت زوجة الجويني مدرسة

العصمتية لتعليم الفقه على المذاهب الأربعة ورباطا بالقرب منها. وبعث الإيلخان تَكُودار برسالة إلى بغداد يطلب فيها إعادة الهبات إلى المدارس والمساجد كما كانت الحال في عهد العباسيين، ولعلها رغبة منه أملتها التقوى. وأدت السياسة التي انتهجها الإيلخانية إلى شبوب فتن في وجه غير المسلمين، فقد أسبغوا حمايتهم على المسيحيين وأعفوهم من الجزية، وأعادوا بناء الكنائس وفتحوا لهم المدارس. وأدى هذا إلى نشوب فتنة في وجههم عام ٦٦٥ هـ (١٢٦٣ م)، وارتفع اليهود إلى مكان الصدارة في عهد أرغون (٦٨٣ - ٦٩٠ هـ = ١٢٨٤ - ١٢٩١ م) بفضل سعد الدولة اليهودي القائم على بيت المال، وهو الذي عين أخاه والياً على بغداد. وفي عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) قُتل سعد الدولة وانقض العامة في بغداد على اليهود. وعانى غير المسلمين في عهد غازان من الالتزام بارتداء زي معين لتمييزهم ومن إعادة فرض ضريبة الرؤوس عليهم وسلوك الغوغاء، فاعتنق كثير

منهم الإسلام. وأثار ألجايتو القلاقل عندما تذبذب بين مذهبي الشيعة والسنة. وحاول الإيلخانية أن يفرضوا « الچاو » (أوراق النقد) ولكنها كانت مكروهة جداً في بغداد فألغاها غازان آخر الأمر عام ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م).

ولدينا روايات ثلاثة من الجغرافيين عن هذه الفترة وهم: ابن عبدالحق (حوالى ٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م) وابن بطوطة (٧٢٧ هـ = ١٣٢٧ م) والمستوفي (٧٤٠ هـ = ١٣٣٩ م).

ويقول صاحب كتاب المراصد أنه لم يبق شيء من غربي بغداد سوى بضعة أحياء منعزلة، أكثرها سكاناً حي الكرخ. ويتحدث عن حي القُرَيَّة وحي الرَّمْلِيَّة الآهل بالسكان وسوق دار الرقيق، ودار القزّ التي تقف وحدها حيث كان يصنع الورق، وحي باب المُحَوَّل الذي يقف وحده كأنه قرية منعزلة. ويشير إلى البيمارستان العَضُدي ويقول إنه لم يبق شيء من أحياء الحريم الطاهري، ونهر طابق والقطيعة على حين

كان حي توثة يبدو كأنه قرية منعزلة. ويقول كتاب المراصد عن شرقي بغداد: «حتى جاء التتر إليها فخرب أكثرها وقتلوا أهلها كلهم فلم يبق منهم غير آحاد، كانوا أنموذجاً حسناً وجاءها أهل البلاد فسكنوها». ويقول إن الحَلَبة والقُرَيَّة والقطيعة كانت أحياء مزدحمة بالسكان.

ويسير ابن بطوطة على نهج ابن جبير ولا يكاد يختلف عنه. ومع ذلك فإنه يتحدث عن قنطرتين في بغداد ويورد تفاصيل جديدة عن الحمامات الممتازة في المدينة. ويقول إن المساجد والمدارس كانت كثيرة بيد أنها كانت خراباً بلقعا.

وللمعلومات التي أوردها المستوفي دلالتها، فهو يتفق في وصفه لسور شرقي بغداد مع ابن جبير. ويقول إن السور كان به أربعة أبواب ويحيط بالمدينة على هيئة نصف دائرة محيطها ١٨,٠٠٠ خطوة، أما غربي بغداد، ويسميه الكرخ، فكان يحيط به سور محيطه ١٢,٠٠٠ خطوة، ووجد أن الحياة سهلة

ميسورة في بغداد وأن أهلها لطاف المعشر، ولكن لغتهم العربية محرفة. ووجد أن السيادة في بغداد للشافعية والحنابلة على الرغم من أن أتباع المذاهب الأخرى كثيرون. وكانت المدارس والرباطات عديدة، ولكنه نوه قائلا إن النظامية كانت أعظمها جميعاً، على حين شغلت مدرسة المستنصرية أجمل مبنى. وقد يُردّ ضريح الست زبيدة إلى هذا العهد، والسيدة التي أطلق اسمها عليه قد تكون زبيدة، حفيدة أكبر أبناء المستعصم.

وفي عام ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) مكّن حسن بُزُرك لنفسه في بغداد وأسس الدولة الجلائرية التي ظلت في الحكم حتى عام ٨١٣ هـ (١٤١٠ م). ويرجع مسجد مرجان إلى هذا العهد. ونعلم من نقوشه أن مرجان، وهو من قواد أويس، شرع في بناء المدرسة ومسجدها في عهد حسن بزرك وأتم بناءها في عهد أويس عام ٧٥٨ هـ (١٣٣٧ م). وكانت المدرسة وقفاً على الشافعية والحنفية. ولم يبق الآن من المدرسة

ـ أو المسجد فيما بعد ـ إلا الباب.

ونسمع فيما عدا ذلك عن فيضان أو حصار أو فتن أحدثت ضرراً بليغاً وخسارة فادحة.

وقد استولى تيمور على بغداد مرتين، أولاهما عام ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ ـ ١٣٩٣ م) وفيها نجت المدينة ولم يلحقها إلا ضرر قليل، والثانية عام ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) عندما أُعْمِل السيف في رقاب أهلها بلا تمييز وخرب الكثير من مبانيها العامة (العباسية) وأحيائها، وكانت هذه ضربة قاضية على الثقافة في بغداد، وعاد أحمد الجلائري إلى بغداد عام ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م) وأصلح الأسوار التي دمرها تيمور وحاول ترميم بعض المباني والأسواق ولكن حياته كانت قصيرة.

وانتقلت بغداد عام ٨١٣ هـ (١٤١٠ م) إلى أيدي التركمان القره قويونلي الذين احتفظوا بها حتى عام ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ ـ ١٤٦٨ م)، وجاء بعدهم التركمان الآق قويونلي. واستمرت بغداد تنحدر إلى

هوة أعمق في عهد التركمان وعانت كثيراً من فساد الحكم، وهجر المدينة عدد كبير من سكانها، ولا شك أن تكرار حدوث الفيضان وما ترتب عليه من دمار إنما يرجع إلى ما أصاب نظام الري من خراب، ويتحدث المقريزي في حوادث عام ٨٤١ هـ (١٤٣٧م) فيقول: «إن بغداد تخربت، فلم يبق فيها مسجد ولا زاوية ولا سوق». وجفت معظم المياه من قنواتها حتى يصعب القول بأنها مدينة. يضاف إلى هذا أن العصبية القبلية سادت وأن أحلاف القبائل بدأت تقوم بدورها في إثارة الفتن في حياة البلاد.

وفي عام ٩١٤ هـ (١٥٠٧ - ١٥٠٨ م) انتقلت بغداد إلى حكم الشاه إسماعيل الصفوي، وبدأت فترة تنازع فيها الفرس والعثمانيون على امتلاك بغداد، وجدت صداها في أغنية بغداد «بين العجم والروم يا ويلنا يا ويلنا»، وهدمت أضرحة الكثيرين من أهل السنة وبخاصة ضريحا أبي حنيفة وعبدالقادر الجيلاني، وقتل الكثيرون من كبار أهل السنة بناء على أوامر

الشاه إسماعيل، ومهما يكن من شيء فإنه قد شرع في بناء ضريح لموسى الكاظم. وأقام والياً منحه لقب خليفة الخلفاء. وأقبل عدد كبير من التجار العجم إلى بغداد وكانوا سبباً في رواج التجارة. وبعد فترة قصيرة من استيلاء الأمير الكردي ذي الفقار على بغداد، وإعلان ولائه للسلطان سليمان القانوني، غلب على المدينة مرة أخرى الشاه طهماسپ عام ٩٣٦ هـ (١٥٣٠ م)، ودخل السلطان سليمان بغداد عام ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م)، وبنى قبة لضريح أبي حنيفة ومسجداً ومدرسة وأعاد بناء المسجد والتكية وضريح الجيلاني وأمر بإقامة خان للفقراء في كل من المسجدين. وأمر أيضاً بتكملة بناء ضريح ومسجد الكاظمين، الذي كان الشاه إسماعيل قد شرع فيه. وأمر بمسح الأراضي المملوكة وتسجيلها ونظم إدارة الولاية. وعهد بها إلى والٍ (باشا) ودفتر دار (للمالية) وقاض. وأقيمت حامية في بغداد، قوامها الإنكشارية.

وشيدت مبان قليلة في الفترة التالية. ففي عام ٩٧٨ هـ (١٥٧٠ م) شيد مراد باشا مسجد المرادية في حي الميدان. وأعيد بناء مسجد الجيلاني. وشيد چغالزاده خاناً، ومقهى وسوقاً شهيرة. كما شيد جامع الصّغا، أو جامع الخَفّافين، وأعاد بناء تكية المولوية المعروفة الآن باسم مسجد الآصفية. وشيد حسن باشا المسجد المعروف باسمه، والمسمى أيضاً بجامع الوزير. كما أقام حصناً وحفر خندقاً حول الكرخ لحمايتها من البدو.

ويبدأ الرحالة الأوربيون زيارة بغداد في هذا العهد. ويتحدثون عنها بوصفها ملتقى للقوافل ومركزاً كبيراً للتجارة مع الجزيرة العربية وبلاد فارس وتركية. ورأى سيزار فردريگو ***Caesar Fredrigo*** (عام ١٥٦٣ م) الكثيرين من التجار الأجانب في المدينة. وشهد سير أنتوني شيرلي ***Sir Anthony Sherley*** (عام ١٥٩٠ م) «سلعاً جيدة من جميع الأنواع رخيصة جدا». وكان فيها قنطرة من

القوارب، تربطها سلسلة كبيرة من الحديد، وعندما تعبر بعض القوارب النهر جيئة أو ذهاباً، ترفع بعض القوارب التي تتألف منها القنطرة حتى تنتهي حركة المرور بالنهر. ورأى راوولفَ ***Rauwolf*** (عام ١٥٧٤ م) شوارع ضيقة وبيوتاً زرية البناء. وكان الكثير من المباني أطلالا خربة. وكانت بعض العمائر العامة ـ مثل مقر الباشا والسوق الكبيرة أو سوق المبادلات التجارية ـ في حالة جيدة. أما حماماتها فكانت حقيرة. وكان الجانب الشرقي منها جيد التحصين بسور وخندق، أما الجانب الغربي فكان مكشوفاً أدنى إلى القرية الكبيرة في مظهره. أما أسوار المدينة فكانت من الآجر وكانت لها ملحقات، تضم أربعة أبراج بارزة ركبت عليها مدافع ثقيلة من البرونز في حال جيدة. وقيل إن محيط الأسوار يتراوح بين ميلين وثلاثة أميال. ولاحظ جون إلدرد ***John Eldred*** (عام ١٥٨٣) أن الناس كانوا يتحدثون بثلاث لغات في بغداد وهي العربية والتركية والفارسية.

ووجد رالف فتش ***Ralph Fitch*** (عام ١٥٨٣) أيضاً أن بغداد لم تكن مدينة كبيرة جداً ولكنها كانت مزدحمة بالسكان. وقدر الرحالة البرتغالي پدرو تكسيرا ***Pedro Texeira*** (عام ١٦٠٤) عدد المنازل في شرقي بغداد بما يتراوح بين عشرين ألف وثلاثين ألف منزل. وكانت في بغداد دار لسكّ النقود، تضرب فيها العملات الذهبية والفضية والنحاسية. وكانت بها مدرسة لتعليم الرمي بالسهام وأخرى لتعليم الضرب بالبنادق، حافظت عليها الحكومة.

وعلى إثر الفتنة التي قام بها بكر الصوباشي، فتح الشاه عباس الأول بغداد عام ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م). وتعرضت للدمار مباني المدارس وأضرحة أهل السنة، ومنها مسجدا الجيلاني وأبي حنيفة. وقتل ألوف أو بيعوا كالأرقاء وعُذب آخرون، وشيد صفي قُلِي خان، الوالي الفارسي في هذا العهد، السراي (مقر الحكومة). واسترد العثمانيون بغداد عام ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م)

بقيادة السلطان مراد الرابع نفسه. وأمر بإعادة بناء الأضرحة وبخاصة ضريحي أبي حنيفة والجيلاني. وسُوِّرَ، عند رحيله، باب الطلسم وظل قائماً حتى هدمه الأتراك عند انسحابهم عام ١٩١٧. وقام صدره الأعظم بترميم القلعة ترميماً جيداً.

ووصلت إلينا حقائق أخرى من الرحالة في هذه الفترة، مثل تافرنييه ***Tavernier*** (عام ١٦٥٢) وأوليا چلبي (عام ١٦٥٥) وتيڤينو ***Thevenot*** (عام ١٦٦٣). وكان السور المحيط بشرقي بغداد يكاد يكون دائري الشكل، وارتفاعه ٦٠ ذراعاً وعرضه من ١٠ ـ ١٥ ذراعا وفيه فتحات للمدافع؛ وبه أبراج عظيمة في الأركان الرئيسية، منها أربعة اشتهرت في هذه الفترة ـ وأبراج أصغر تبعد كل منها مسافة قصيرة عن الأخرى. وثبتت مدافع من النحاس الأصفر على الأبراج الكبرى. وأكمل السور على ضفة النهر للدفاع عنها بحق (وتبين خريطة نصوح الصلاحي التي رسمت للسلطان سليمان عام

١٥٣٧ هذا السور). وكان في السور الذي على البر ١١٨ برجاً وفي السور الذي على ضفة النهر ٤٥ برجاً. ويتحدث كر پورتر **Ker Porter** [عام ١٨١٩] عن ١١٧ برجاً، منها ١٧ برجاً كبيراً. وكان للسور ثلاثة أبواب في الجانب الواقع على البر (لأن باب الطلسم مسوَّر) وهي: باب الإمام الأعظم في الشمال على بعد ٧٠٠ ذراع من نهر دجلة، وقرا نلق قاپي (باب كلواذى) أو الباب الأسود في الجنوب على بعد ٥٠ ذراعاً من نهر دجلة، وآق قاپي (الباب الوسطاني) أو الباب الأبيض في الشرق. أما الباب الرابع فكان عند القنطرة. وقاس أوليا چلبي طول السور فوجد أنه ٢٨,٨٠٠ خطوة بالسير البطيء أو سبعة أميال (الميل الواحد = ٤٠٠٠ خطوة) بينما يذهب حاجي خليفة إلى أن طوله ١٢,٢٠٠ ذراع أو ميلان (يرى نيبور **Niebuhr** وأوليڤييه **Olivier** أن طول شرقي بغداد ميلان). ومن رأي ولستد **Wellsted** أن محيط الأسوار سبعة أميال، ويقول فلكس جونز **Felix Jones** الذي قام بمسح بغداد

عام ١٨٥٣ أن محيط أسوار شرقي بغداد، وتضم واجهة النهر، ١٠,٦٠٠ ياردة أو حوالى ستة أميال.

وكان يحيط بالسور خندق، عرضه ستون ذراعاً، يجلب له الماء من نهر دجلة. وتقوم القلعة (القلعة الداخلية) في الطرف الشمالي الغربي من السور، من باب المعظم إلى نهر دجلة؛ ويحدق بها سور واحد به أبراج صغيرة ركبت عليها المدافع. وكانت هناك ثكنات ومخازن للذخيرة الحربية والمؤن العسكرية وكذلك الخزانة ودار سك النقود. أما السراي، التي يقيم بها الباشا، فكانت أسفل القلعة، وبها بساتين فسيحة وجواسق جميلة، وعلى الطرف الآخر من القنطرة كانت هناك قلعة تسمى قوشلر قلعة سي أو قلعة الطيور، ولها باب على القنطرة. ويشير أوليا چلبي إلى مساجد بغداد الكثيرة ويتحدث عن تسعة مساجد هامة منها. أما المدارس فأكبرها مدرستان هما المرْجانية ومدرسة الخلفاء (المستنصرية)، وكان بين الخانات الكثيرة اثنان صالحان. ويتحدث عن

ثماني كنائس وثلاثة معابد لليهود، ويورد أرقاماً مبالغاً فيها لعدد التكايا (٧٠٠) والحمامات (٥٠٠). وكان جسر القوارب من ٣٧ إلى ٤٠ قارباً حسب ارتفاع مياه النهر، وفي الإمكان رفع بعض القوارب في الوسط إما لدواعي الأمن بالليل أو لتيسير حركة المرور بالنهر أو لمجرد الاحتياط الذي تقتضيه الضرورة العسكرية. وكانت اللغات الكبرى التي يتحدث بها الناس في بغداد هي العربية والتركية والفارسية. وكان ببغداد أجود أنواع الحمام الزاجل.

ومهما يكن من شيء فإن بغداد كانت لا تزال تسير في طريق الاضمحلال، فقد بلغ عدد سكانها أقل رقم وصل إليه وهو ١٥,٠٠٠ نسمة.

وحكم بغداد ٢٤ باشا بين عامي ١٠٤٨ هـ (١٦٣٨ م) و ١١١٦ هـ (١٧٠٤ م) ولم يكن هناك مجال لأي تقدم حقيقي. ولقد تمتع الباشوات بشبه استقلال ذاتي، وكانت قوة الإنكشارية عظيمة.

واشتد بأس القبائل وأصبح شيئاً فشيئاً يهدد الحياة في المدينة.

وإذا استثنينا ترميم أسوار المدينة أو المساجد فإننا لا نجد من الإصلاحات إلا القليل. فقد شيد كوچوك حسن باشا ثلاثة أبراج بالقرب من برج العجم. وأعاد خاصّكي محمد پاشا بناء طابية الفاتح، ورمم الأسوار بعد فيضان عام ١٦٥٧، ورمم أحمد بُشْناق الأبراج، وبخاصة برج الجاويش (چاووش) وشيد برج الصابوني (عام ١٦٨٧). ولقيت المساجد بعض العناية فقد أعاد دلي حسين پاشا (عام ١٦٤٤) بناء مسجد القمرية. وشيد مسجد الخاصكي في رأس القرية. وأعاد سلحدار حسين پاشا (عام ١٦٧١) بناء مسجد الفضل الذي أصبح يعرف باسم جامع حسين پاشا، وأحاط ضريح عمر السُهْرَوَرْدي بسور وجلب إليه الماء بشق قناة. ورمم عبدالرحمن پاشا (عام ١٦٧٤) جامع الشيخ معروف وأكمل السد الذي شرع في بنائه سلفه لحماية الأعظمية من مياه الفيضان.

وأعاد قپلان مصطفى (عام ١٦٧٦ م) بناء جامع الشيخ القُدوري الذي أصبح يعرف باسم جامع القپلانية، ورمم عمر پاشا (عام ١٦٧٨) مسجد أبي حنيفة وحبس عليه أوقافاً جديدة. وجدد إبراهيم پاشا (عام ١٦٨١) جامع السيد سلطان علي وجامع السراي، وأعاد إسماعيل پاشا (عام ١٦٩٨) بناء جامع الخَفّافين. وشيد أحمد بشناق (عام ١٦٧٨) خان بني سعد المشهور على حين شيد السلحدار حسين باشا سوقاً جديدة بالقرب من المستنصرية.

وشهد مطلع القرن الثامن عشر الفوضى تضرب أطنابها بصورة مروعة في إيالة بغداد، فالإنكشارية يصبحون سادة الموقف في المدينة، والقبائل العربية تسيطر على أرض الريف المجاورة والسلام والأمن لا وجود لهما بالنسبة للتجارة، وكان تعيين حسن باشا عام ١٧٠٤ ثم تعيين ابنه أحمد بعده، إياه ببدء عهد جديد لبغداد، فقد استعانا لأول مرة بالمماليك (كوله من) لكبح جماح الانكشارية ووضعا الأساس

لسيادة المماليك التي دامت حتى عام ١٨٣١ . وأصبح من الميسور السيطرة على الإنكشارية والقبائل العربية، واستتب النظام كما أمكن توقي التهديد الفارسي. وأعاد حسن باشا بناء مسجد السراي (جديد حسن باشا)، وألغى المكوس على الوقود والمأكولات، وأغاث الأحياء وخلصها من المظالم واغتصاب الأموال الذي كان يحدث عقب جرائم القتل. واستمر أحمد باشا يسير على نهج أبيه ورفع إلى حد كبير هيبة بغداد . وحاصر نادر شاه بغداد مرتين عامي ١٧٣٧ و ١٧٤٣ ، وعلى الرغم من أن المدينة قاست كثيراً من الحصار الأول فإن أحمد باشا صمد وأنقذ المدينة . فلما مات أحمد باشا عام ١٧٤٧ حاولت الآستانة أن تفرض سلطانها من جديد على بغداد ولكنها فشلت بسبب معارضة المماليك . وكان سليمان باشا أول مملوك ينصب والياً على بغداد عام ١٧٤٩ . وهو يعد المؤسس الحقيقي لنظام الحكم المملوكي في العراق . واضطر السلطان مذ ذاك إلى أن يعترف بوضعهم وأن

يصدق بوجه عام على تعيينهم في مناصب الولاة. وأراد حسن پاشا الذي تربى في البلاط العثماني (بيت الرقيق) أن يحذو حذوه، فشيد بيوتاً وشرع في تدريب المماليك الچراكسة والكرج وأبناء أقطاب القوم في هذه البيوت. وتوسع سليمان وقتذاك في هذا التدريب، وكان هناك على الدوام نحو ٢٠٠ مملوك يتلقون التدريب في المدرسة، لإعدادهم ليكونوا ضباطاً وموظفين. وكانوا يتلقون تعليما أدبيا ويتدربون على استخدام الأسلحة، وفن الفروسية والألعاب الرياضية، ويتلقون آخر الأمر شيئاً من التربية الخاصة بالقصور، ليخرج منهم صفوة يتولون الحكم (سليمان فائق: تأريخ المماليك؛ دوحة الوزراء، ص ٨)، وتكونت طبقة من الحكام تجمع بين الدربة والمقدرة والحصافة. ولكن الضعف تسرب إلى صفوفهم بسبب مشاعر الحسد والدسائس، وأخضع سليمان شوكة القبائل واستتب في عهده النظام والأمن وشجع التجارة. وخلفه علي پاشا عام ١١٧٥ هـ (١٧٦٢ م) وتلاه عمر پاشا عام ١١٧٧ هـ

(١٧٦٤ م؛ تأريخ جودت، الطبعة الثانية، جـ ١، ص ٣٣٩ - ٣٤٠)، واعتمدت بومباي عام ١٧٦٦ إقامة دار للمعتمد البريطاني في بغداد. وتفشى طاعون وبيل في بغداد عام ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م) واستمر ستة شهور، وهلك آلاف وهاجر آخرون وتوقفت الأعمال التجارية.

وقد أدى استتباب الأمن إلى أن تصبح بغداد مركزاً تجارياً عظيماً، وقد كتب شاهد عيان سنة ١٧٧٤ يقول: «هذه هي السوق الكبرى لمنتجات الهند وبلاد فارس والآستانة وحلب ودمشق؛ وصفوة القول إنها المستودع العظيم للشرق».

وأدى الشقاق بين المماليك وضعف قيادتهم إلى قيام عهد انتشرت فيه الفتن والمنازعات القبلية وإلى غزو البصرة على يد الفرس. وانتهى هذا العهد عندما أصبح سليمان پاشا الكبير والياً (١١٩٣ هـ = ١٧٧٩ م) وجمع بين بغداد وشهرزور، والبصرة،

وكبح جماح القبائل واستتب السلام وانتعشت قوة المماليك.

ورمم سليمان باشا أسوار شرقي بغداد، وشيد سوراً حول الكرخ وأحاطه بخندق. وأعاد بناء السراي، وبنى مدرسة السليمانية، وجدد مسجد القبلانية والفضل والخلفاء. وعلاوة على هذا فإنه بنى سور السَرّاجين. وشرع مولاه (الكخيا) في بناء مسجد الأحمدية (جامع الميدان) ليكمله شقيق الكخيا، وشهد آخر عام من حياته (١٨٠٢) طاعوناً يتفشى في بغداد. وألغى كوچوك سليمان (عام ١٨٠٨) عقوبة الإعدام إلا إذا حكمت بها المحاكم الشرعية، ومنع مصادرة الأموال وألغى الرسوم المفروضة على رفع القضايا في المحاكم، وخصص مرتبات للقضاة.

وولي دواد باشا الحكم (عام ١٨١٦) بعد فترة سادتها القلاقل. واخضع شوكة القبائل واستعاد النظام والأمن. وطهر بعض قنوات الري وأنشأ

مصانع لإنتاج القماش والأسلحة وشجع الصناعة المحلية. وشيد ثلاثة مساجد كبيرة أهمها مسجد حيدر خانه. وأنشأ ثلاث مدارس وبنى سوقاً بجوار القنطرة. ونظم جيشاً قوامه حوالى ٢٠,٠٠٠ جندي واستقدم ضابطاً فرنسياً لتدريبه. وعادت إدارته القديرة الذكية بالرخاء على المدينة. ومهما يكن من شيء فإنه اضطر إلى فرض مكوس باهظة في بغداد. وكان سقوط حكم داود ونهاية عهد المماليك نتيجة سياسة محمود الثاني التي اتسمت بالمركزية والإصلاح، وإلى جانب الطاعون الوبيل، والقحط، والفيضان التي تأثر بها معظم سكان المدينة (١٢٤٧ هـ = ١٨٣١ م).

وقد نقل النظام الإداري ببغداد على نطاق صغير من نظيره في الآستانة. واحتفظ الپاشا بالسلطة العسكرية والإدارية العليا. وكان الكتخدا (أو الكخيا) وهو أشبه بالوزير، على رأس الإدارة، يعاونه الدفتردار الذي كان مديراً للمالية وديوان

أفنـدي سي أو رئيس الحجـاب. وكـان ثمة رئيس لحرس القصر وآغا للإنكشارية. وكان القـاضي على رأس السلطة القضائية. وكان الباشا يدعـو الديـوان الذي يضم الكخيـا والدفتردار والقـاضي والقـائـد والشخصيات الكبيرة الأخرى لمناقشة المسائل الهامة، وكـان في القصر بيتـان بهما مـدرسـون ومعلمـون (لالات) لتعليم المماليك. وكان قوام جيش المماليك ١٢,٥٠٠ جندي ويرتفع عددهم في حالة الضرورة إلى ٣٠,٠٠٠ بتجنيد الأهالي وبالمجندين من باقي أرجاء الولاية

إن موقع المدينة المدوّرة قـد حـددتـه القنـوات القديمة، وبخاصة قناة عيسى وقناة الصراة، ولا يزال مجرى قناة عيسى يعـرف بالعيسـاوي أو الداودي، ويمكن مشاهدة القناة التي تنساب في المدينة وتتبعها حتى قناة الخِرّ، بيد أن الجزء الأدنى منها قد أزيل. غير أننا نعرف أن القنطرة الرئيسية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كانت عند مَشْرَعة

الرواية بجانب قناة عيسى. وأن هذه المشْرَعة كانت مقابلة لسوق الثلاثاء تحت قنطرة المأمون الحديثة (ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٨، ص ١٦٩، الكاتب نفسه: مناقب بغداد، ص ٢٠؛ انظر *Mission:* Massignon، جـ ٢، ص ١٠٤ - ١٠٥). ومع ذلك فإني لجأت إلى استخدام آلة «السپلكتروغراف» لعمل مسح لمنطقة بغداد ووجدت أن مجرى قناة عيسى حتى نهر دجلة كما هو موضح على الخريطة (عند الشوّاكة الحديثة) يتفق مع ما أشرت إليه فيما سبق.

وكانت قناة الصراة تصب في نهر دجلة بالقرب من باب الشعير. ويقول ابن الفقيه (مخطوطة مشهد) إن باب الشعير كان بالقرب من نهر الشريعة الذي كانت تتوقف عنده المراكب القادمة من الموصل. ونهر الشريعة المشار إليه لا يمكن أن يكون موضعه اليوم إلا القمرية.

وكان الحد الجنوبي للمدينة المدورة بالقرب من قناة الصراة، عند ملتقى هذه القناة بنهر دجلة.

وكانت قرية سونايا خارج سورها، بالقرب من القسم الشمالي (انظر ابن الجوزي: المناقب، ص ٢٤). وكانت هذه القرية، على الأرجح، في موضع المنطقة الحالية، ومن ثم فإن المِنْطَقة هي الحد الشرقي للمدينة المدورة التي كانت لا تقع مباشرة على نهر دجلة. وقد حدد أحمد ين حنبل موقع مدينة بغداد بين قناة الصراة وباب التبن، وبهذا يرى أن خندق طاهر هو الحد الشمالي لها. وكان هذا الخندق يضم الحريم الطاهري ولا يترك وراءه إلا قطيعة أم جعفر (الخطيب، ص ٧٩؛ المناقب، ص ٢٨). ولما كان جناح الحريم الطاهري قد اكتسحت معظمه مياه نهر دجلة أثناء تغيير مجراه (كما يقول صاحب كتاب المراصد)، فإن حده لا يمكن أن يتجاوز خط عرض ٣٣ْ ٢٢َ شمالاً، ومن ثم فلا ريب أن الحد الشمالي للمدينة المدورة كان عند خط عرض ٣٣ْ ٢١َ.

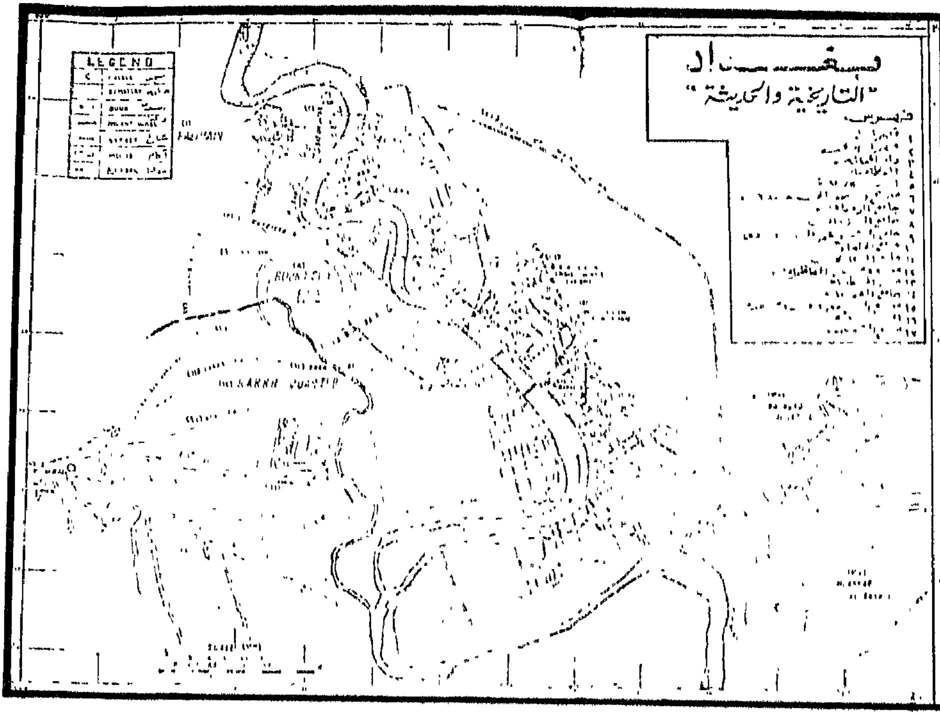
وكان معسكر المهدي (الرصافة) يكاد يقابل المدينة المدورة، وكان حي الشماسية في الجهة المقابلة

لحي الحربية ، بينما كان باب الشماسية يكاد يقابل باب قَطْرَبُّل (الإصطخري ، ص ٨٣ ؛ الطبري جـ ٣ ، ص ١٥٧٦). وكانت الشماسية شمالي حي أبي حنيفة وشرقيه ، وأسفل حي أبي حنيفة تقع مقبرة الخلفاء ويليها مسجد الرصافة. ويدل الحفر وتحليل التربة على أن هذه المقبرة كانت فوق النادي الرياضي الملكي السابق بقليل. وكان مسجد الرصافة على مسيرة نحو ميل شمالي جامع السلطان عند المخرّم العليا التي لا يمكن أن تكون فوق العيواضية الحديثة ، وعلى هذا فإن المسجد كان عند الحد الشمالي لساحة عنترة.

وكانت المستنصرية هي الحد الجنوبي للمخرم وبداية سوق الثلاثاء التي كانت تنتهي عند جامع الخلفاء (ويمكن اقتفاء أثرها بمئذنة سوق الغزل). وعلى هذا فإن القصور الملكية (حريم دار الخلافة) تبدأ وتمتد عبر القُرَيَّة - التي لا تزال تحتفظ باسمها - وتنتهي عند الرَّبْض في المُرَبَّعَة - التي لا تزال تحتفظ أيضاً باسمها ، (انظر ابن جبير). وهذا يحدد موضع

حريم دار الخلافة بين شارع السموأل تقريباً وجامع سيد سلطان علي. وعند حفر أساسات المبنى الجديد لمصرف الرافدين، على مسيرة حوالى خمسين ياردة من شارع السموأل اصطدمت المعاول بمطبخ، يرجح أنه كان مطبخ دار الخلافة (الجهشياري، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨، ص ١٨٩، ١٩٥؛ ابن الأثير، جـ ١٠، ص ٧٣، ياقوت، جـ ٢، ص ٥٨٧، جـ ٣، ص ١٩٥؛ انظر *Mission Massignon:*، ص ٨٩؛ سومر، جـ ٢، ص ١٩٧). وينطبق حد سور المستعين شرقاً على سدّ ناظم پاشا تقريباً كما يتضح من حفر أساسات المنازل الجديدة.

ويقدم لنا الرحالة الأوربيون في هذا العهد بعض المعلومات عن بغداد، وينوه البعض بأن الأسوار بنيت ورممت في عهود كثيرة مختلفة، وأن الأجزاء القديمة هي الأفضل. وكانت المنطقة المحصورة داخل الأسوار (شرقاً) تبلغ مساحتها طبقاً لتقدير فيلكس جونز **Felix Jones** ٥٩١ فداناً.



(١) الكاظمي
(٢) قطيعة أم جعفر
(٣) دجلة القديم
(٤) الحريم
(٥) حي الحربية
(٦) باب الشام
(٧) الخندق الطاهري
(٨) قصر ومسجد باب الذهب
(١٠) باب الكوفة
(١١) قناة الصراة
(١٢) حي الكرخ
(١٣) ربع الكرخ
(١٤) قناة عيسى
(١٥) المحول
(١٦) مدينة المنصور الحديثة
(١٧) باب البصرة
(١٨) الشامسية
(١٩) ربع أبي حنيفة
(٢٠) الرصافة
(٢١) سور المستعين
(٢٢) السد الشرقي
(٢٣) سد نديم باشا
(٢٤) المخرم
(٢٥) باب السلطان (الباب الشمالي)
(٢٦) سوق الثلثاء
(٢٧) باب الخلافة
(٢٨) ربع الظفرية
(٢٩) باب الظفرية (الباب الوسطاني) (آق قابي
(٣٠) باب الطلسم (باب الحلبة)
(٣١) سور المستظهر وما بعده
(٣٢) قصر المعلي
(٣٣) المأمونية
(٣٤) باب الأزج
(٣٥) سوق الثلاثاء
(٣٦) باب البصلية (قرا نلق قابي)
(البوابة الجنوبية)
(٣٧) معسكر الرشيه
(٣٨) بغداد الجديدة
(٣٩) مقياس الرسم
صفر ٤٠٠ ٨٠٠ ١٢٠٠ ١٦٠٠ ٢٠٠٠

ويبدو أن السور القائم على النهر قد أهمل وأن بيوتاً شيدت على الضفة. ولم يشغل أحد قسماً كبيراً من المدينة داخل الاسوار، وبخاصة في الجانب الشرقي. أما القسم القريب من النهر فكان آهلاً بالسكان، ولكن حتى هناك كانت البساتين من الكثرة بحيث بدا هذا القسم كأنه مدينة تقوم وسط حرج من النخيل. وكانت السراي فسيحة وفيها بساتين جميلة ومجهزة بأثاث ثمين.

أما الجانب الغربي وهو الكرخ، فكان بمثابة ضاحية فيها بساتين عديدة. وكان في مبدأ الأمر خالياً من وسائل الدفاع إلى أن جاء سليمان باشا فبنى السور الكبير وفيه أربعة أبواب: ـ باب الكاظم (شمالا) وباب الشيخ معروف (غرباً)، وباب الحِلّة (في الجنوب الغربي) وباب الكريمات (جنوباً). وكان طول الأسوار ٥,٨٠٠ ياردة، وتحيط بمنطقة مساحتها ٢٤٦ فداناً. ووجد كر پورتر Ker Porter (سنة ١٨١٨) أنها تضم حوانيت في شوارع عديدة

واسعة. وفضلا عن ذلك فإن هذا الجانب لم يكن آهلا بالسكان مثل الجانب الشرقي، وكان يسكنه عادة عامة الناس. وكان عرض جسر القوارب ست أقدام، وعليه كان الناس يعبرون النهر أو يستخدمون القفف لعبوره. وزاد عدد السكان بالتدريج في هذا العهد. ويقدر روسو Rousseau (حوالى عام ١٨٠٠) عددهم بـ ٤٥,٠٠٠ نسمة، أما أوليڤيه فيرى أنهم ٨٠,٠٠٠ نسمة، بينما يذهب السكان إلى أن عددهم ١٠٠,٠٠٠؛ ويقدر بكنجهام **Buckingham** (١٨١٦) أن عددهم يبلغ ٨٠,٠٠٠ نسمة. أما كر پوتر ***Ker Poter*** (سنة ١٨١٨) فيرى أن العدد يبلغ ١٠٠,٠٠٠ نسمة. ويردد المنشىء البغدادي أصداء آراء محلية بقوله إنه كان في بغداد ١٠٠,٠٠٠ بيت، منها ١,٥٠٠ بيت لليهود و ٨٠٠ للمسيحيين. وما إن يحل عام ١٨٣٠ حتى يصل التقدير ما بين ١٢٠,٠٠٠ - ١٥٠,٠٠٠ نسمة. وكان هناك خليط من الأجناس والملل. وكانت طبقة الموظفين من

الأتراك (أو المماليك) أما التجار فكانوا أولا من العرب، وكان هناك أعجام وكرد وبعض الهنود. وكانت في بغداد أسواق كثيرة، وبخاصة بالقرب من القنطرة، وكانت الأسواق الكبرى مغطاة بقباب من الآجر، أما بقية الأسواق فمغطاة بجذوع النخيل. وبها كثير من الخانات و ٢٤ حماماً وخمس مدارس كبيرة وعشرون مسجداً كبيراً وكثير من المساجد الصغيرة.

وكانت الطرقات ضيقة، ينتهي بعضها ببوابات تغلق في الليل لحماية السكان. وكانت البيوت مرتفعة، فيها نوافذ قليلة تطل على الشوارع. ويتألف البيت في الداخل من سلسلة من الحجرات تفضي إلى فناء داخلي مربع به بستان عادة. وكان الناس يلجأون إلى السراديب لاتقاء الحرارة في الصيف، وإلى الأسطح المكشوفة للجلوس بعد العصر. وكانوا ينامون فوق السطح في فصل الصيف. ولم تخل بغداد من بعض الصناعات وبخاصة دباغة الجلود ونسيج القطن

والحرير والأقمشة الصوفية.

وكانت بغداد خاضعة مباشرة لحكم الآستانة من عام ١٨٣١ حتى نهاية العصر العثماني. وحاول بعض الولاة أن يقوموا بإصلاحات. وكان محمد رشيد باشا (سنة ١٨٤٧) أول من حاول تحسين الأحوال الاقتصادية، فأنشأ شركة لشراء سفينتين للنقل تعملان بين بغداد والبصرة وأدى نجاحها إلى قيام مشروع بريطاني مماثل. وأسس نامق باشا (١٨٥٣) الدمير خانه التي كان في استطاعتها إصلاح السفن. وأدخل مدحت باشا (١٨٦٩ - ١٨٧٢) نظام «الولاية» الحديث. فكان للوالي معاون ومدير للشؤون الخارجية ومأمون أو كاتب سر. وقسمت الولاية إلى سبعة سناجق، يرأسها متصرفون، وكانت بغداد إحداها. وألغى المكوس المكروهة: الاحتساب (الرسم) على كل إنتاج يجلب إلى أسوار المدينة للبيع، والطالبية، وهي مكس كان يُفرض على أصحاب الحرف النهرية، و «خُمس حطب» أو

٢٠٪ على الوقود، و «روس أبكـار» على دواليـب الري للزراعـة، وحلـت محلهـا ضريبـة العُشْـر على الإنتاج الزراعي. وأنشأ مدحت عام ١٨٧٠ تراماً يصل بغداد بالكاظمية وظل يعمل ٧٠ عاماً . وأسس (عـــام ١٨٦٩) أول دار للنشر، وهـــي دار نشر الولاية، في بغداد، وأسس الزوراء وهي أول جريدة تظهر في العراق، وتنطق رسمياً باسم حكومة الولاية. واستمرت تصدر حتى شهر مارس عام ١٩١٧ جريدة أسبوعية. ولم تكن في بغداد مدارس حديثة اللهم إلا بضع مدارس لبعثات التبشير الفرنسية. وأنشأ مدحت بين عامي ١٨٦٩ و ١٨٧١ مدارس حديثة ومدرسة صناعية ومدارس عسكرية رشدية وإعدادية ومدارس ملكية رشدية وإعدادية. وهدم مدحت أسوار المدينة متخذاً من ذلك خطوة أولى في سبيل إسباغ صفة العصرية عليها. وأكمل بناء السراي التي بدأها نامق باشا.

واستمرت حركة التعليم التي بدأها مدحت بعد

انتهاء حكمه. وافتتحت أول مدرسة رشدية للبنات عام ١٨٩٩. وافتتحت أربع مدارس ابتدائية عام ١٨٩٠ ومدرسة لمعلمي القسم الابتدائي عام ١٩٠٠. وما إن حل عام ١٩١٣ حتى كانت في العراق ١٠٣ مدارس: ٦٧ مدرسة ابتدائية، ٢٩ مدرسة رشدية، ٥ مدارس إعدادية، وكلية واحدة هي كلية الشريعة (لغة العرب، سنة ١٩١٣، ص ٣٣٥). وأنشئت خمس مطابع بين عامي ١٨٨٤ و ١٩٠٧. وظهرت جرائد في بغداد بعد عام ١٩٠٨، وعند حلول عام ١٩١٥ كانت هناك ٤٥ جريدة يصدرها أناس مختلفون.

وخلف مدحت ولاة تعاقبوا على الحكم فترات قصاراً، ولم ينجز في عهدهم إلا القليل. وفي عام ١٨٨٦ فرض نظام الخدمة العسكرية الإجبارية (على المسلمين فقط). وفي عام ١٨٧٩ افتتحت أخيراً المستشفى التي بناها مدحت. وفي عام ١٩٠٢ أقيم جسر جديد من القوارب، اتساعه يكفي لمرور

العربات، وبه مقهى على الجانب الجنوبي. وأرسلت بغداد ثلاثة نواب يمثلونها في المجلس النيابي العثماني. وشيد نظام پاشا عام ١٩١٠ سداً يحيط بشرقي بغداد لحمايته من الفيضان وكان ناظم پاشا آخر الولاة الأقوياء.

ولقد كان الوالي يرأس الإدارة، ويعاونه مجلس، يتألف حوالى نصفه من أعضاء منتخبين، ويعين الباقون (بحكم وظائفهم). وكان بين الأعضاء المنتخبين اثنان من غير المسلمين. ويعاون الوالي قائم مقام. وكانت بين الوظائف الهامة مديرية المعارف ومديرية الطابو، ومكتب التسجيل والمحاكم المدنية. وكانت بغداد، حتى عام ١٨٦٨، قصبة الإيالات الثلاث: الموصل والبصرة وبغداد. وانفصلت الموصل عام ١٨٦١، والبصرة عام ١٨٨٤، وأصبحت بغداد قصبة المتصرفلقيات الثلاث.

وترك الطاعون والفيضان عام ١٨٣١ آثاراً مروعة

في بغداد. وأضحت معظم المنازل في شرقي بغداد أطلالا خربة، وثلثا الأرض الفضاء المحصورة داخل الأسوار خالية، بينما كان معظم حي الكرخ خراباً بلقعا. وكان في الأسوار القائمة على كلا الجانبين فجوات كبيرة نفذ منها الفيضان. وكانت المدينة في حالة يرثى لها إذا قورنت بما كانت عليه أيام داود باشا.

ولاحظ سوثكيت Southgate (سنة ١٨٤٧) أن المدينة أخذت تفيق ببطء من هول الكارثة، وقدر عدد السكان بأربعين ألف نسمة. ولكنه رأى المدارس مهملة ولا تنفق مخصصاتها على الوجه الرشيد.

وعندما قام فليكس جونز Felix Jones بعمل مساحة لمدينة بغداد (١٨٥٣ ـ ١٨٥٤) كانت الأمور قد تحسنت. وهو يتحدث عن ٦٣ حياً في شرقي بغداد، و ٢٥ حياً في الكرخ، معظمها لا تزال تحتفظ بأسمائها.

وأخذ عدد السكان يزداد ازدياداً مطـرداً بعـد منتصف القرن التاسع عشر. وكانوا حوالى ٦٠,٠٠٠ نسمة عام ١٨٥٣. وقدر عدد الذكور من سكان بغداد عام ١٨٦٧ بـ ٦٧,٢٧٣. وفي عام ١٨٧٧ قدر عددهم جميعاً بما يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ ألفاً. وفي عام ١٨٩٠ قدر عددهم بما يتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ ألف.

وفي تقدير آخر أن عددهم بلغ ١٤٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٠٤. وعند حلـول عـام ١٩١٨ بلـغ عـدد السكان ٢٠٠,٠٠٠ نسمة. وتأثـر الرحـالـة بخليـط الأجنـاس الهائـل واختلاف لغـة الكلام، والحريـة النادرة التي يتمتع بها غير المسلمين والتسامح العظيم السائد بين الجماهير. وترك هذا الخليط طابعه على اللهجة في بغداد.

ومهما يكن من شيء فإن اللغة العربية كانت هي اللغة الشائعة. وازداد السكان العرب بظهور عناصر قبلية. وكان الأهالي الذين يتبعون ملة واحدة أو

يمتون لجنس واحد يحتشدون عادة في حي خاص. وكان الأتراك يحتلون الأحياء الشمالية من المدينة، على حين كان اليهود والمسيحيون يقيمون في أحيائهم القديمة شمالي سوق الغزل وغربيه. ومعظم العجم يعيشون في الجانب الغربي، أما سكان الكرخ فكانوا في الغالب من العرب. وعلى الرغم من أن السكان الذين يعتنقون الأديان الثلاثة كانوا يتحدثون باللغة العربية فإن لهجاتهم كانت تختلف.

وفي دورة القرن كانت لا تزال فيها بعض الصناعات. ومن المنسوجات في بغداد، الأقمشة الحريرية والأقمشة القطنية، والأقمشة المصنوعة من مزيج من الصوف والحرير، وأقمشة قطنية مخططة، وقماش قطني خشن تصنع منه طيلسانات للرأس وعباءات وثياب خارجية للنساء. واشتهرت الأقمشة الحريرية في بغداد بلونها وجودة صناعتها. وكانت هناك صناعة للصباغة ممتازة. وكانت دباغة الجلود من الصناعات الرئيسية، وفي حي المعظم نحو أربعين

مدبغة، والنجارة وصناعة السيوف من الصناعات المتقدمة. وكان هناك مصنع حربي للنسيج.

وكانت أسواق بغداد إما مغطاة وإما مكشوفة مثل سوق الغزل. وفي رأس الجسر الشرقي كانت الساحة الرئيسية للتجارة في أسواق السراي والميدان والشُرْجَة وسوق القماش الذي أعاد داود باشا بناءه، وكانت في بعض الأسواق حرف لها نقابات خاصة بها. وتسمى السوق عادة باسمها مثل سوق الصفافير (النحاسين) وسوق السرّاجين وسوق الصاغة وسوق الخفّافين (صانعي الأحذية) إلخ.

وكان هناك شارعان مهمان، أحدهما يتجه من الباب الشمالي إلى قرب القنطرة، والآخر يسير من الباب الجنوبي إلى نهاية السوق الرئيسية. وفي عام ١٩١٥ كان الباب الشمالي يتصل بالباب الجنوبي بطريق يعرف باسم شارع الرشيد.

وحاول نامق باشا عام ١٩٢٢ إصلاح بعض

الشوارع. وحوّل سري پاشا سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) الميدان إلى ساحة مكشوفة بها بستان (انظر سالنامه سنة ١٣٢١ هـ، ص٧٦).

وأنشأ مدحت عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٩ م) مجلساً بلدياً يختار أعضاؤه بطريق الانتخاب، وصدرت أوامر بتنظيف الشوارع. وأنشئت بلديات عام ١٨٧٩، وصدرت أوامر بتحقيق النظافة والنزح. وأدخلت الإضاءة بمصابيح الغاز وعهد بها إلى مقاول، ولكن لم تحظ بالإضاءة في الواقع إلا الشوارع التي يقيم بها سكان من علية القوم.

وكانت مدينة بغداد في مستهل القرن العشرين تستوعب مساحة قدرها حوالى أربعة أميال مربعة، وبقايا سور المدينة على الجانب الشرقي الذي هدمه مدحت قد أصبح هو والنهر على شكل معين تقريبي طول ضلعه حوالى ميلين ومتوسط عرضه يزيد على الميل. وكان حوالى ثلث هذه المساحة خالياً أو تشغله مقابر أو أطلال، وفي المنطقة الواقعة تجاه الجنوب

أرض فضاء شاسعة تكسوها أحراج من النخيل. وبدأت الكرخ تنمو نحو منبع النهر أكثر مما تتجه نحو شرقي بغداد، ولكنها كانت أصغر في الطول والعمق. وفي عام ١٨٨٢ كان هناك ١٦,٣٠٣ بيتاً و ٦٠٠ خان و ٢١ حماماً و ٤٦ مسجداً جامعاً و ٣٦ مسجداً و ٣٤ مكتباً للأطفال و ٢١ مدرسة دينية و ١٨٤ مقهى و ٣,٢٤٤ حانوتاً. أما في عام ١٨٨٤ فكانت الأرقام كما يلي: ١٦,٤٢٦ بيتاً و ٢٠٥ خانات و ٣٩ حماماً و ٩٣ مسجداً جامعاً و ٤٢ مسجداً و ٣٦ مكتباً للأطفال (سالنامه سنة ١٣٠٢ هـ، ص ٣٣٥).

وفي عام ١٩٠٣ كان في بغداد ٤٠٠٠ حانوت و ٢٨٥ مقهى و ١٣٥ بستاناً و ١٤٥ جامعاً و ٦ مدارس أولية و ٨ مدارس لغير المسلمين و ٢٠ تكية و ١٢ حانوتاً للوراقين، ومكتبة عامة، و ٢٠ مكتباً للصبيان و ٨ كنائس و ٩ مدابغ ومصنع للصابون و ١٢٩ ورشة للنسج و ٢٢ مصنعاً للنسيج. وعند

حلول عام ١٩٠٩ بلغ عدد المنازل ٩٠,٠٠٠ منزل. وكانت هناك ثلاث مطابع خاصة و ٦ كنائس و ٦ معابد لليهود.

ويصف شكري الآلوسي ٤٤ مسجداً في شرقي بغداد و ١٨ مسجداً في الكرخ.

وتتراوح درجة الحرارة في بغداد بين ١١٤° و ١٢١° فهرنهيت في الصيف وبين ٢٦° و ٣١° فهرنهيت في الشتاء، ولكنها ترتفع أحياناً إلى ١٢٣° فهرنهيت في الصيف، وتهبط إلى ٢٠° فهرنهيت في الشتاء.

وأنجبت بغداد بعض الشعراء البارزين إبان العصر العثماني مثل فضولي وذهني وأخرس وعبدالباقي العمري، كما أنجبت مؤرخين مثل مرتضى، وغُرابي، ومحمود شكري الآلوسي، وفقهاء مثل عبدالله السويدي وأبي الثنا الآلوسي.

وقد تغيرت بغداد الحديثة إلى حد كبير وبخاصة منذ الثلاثينات، فقد اتسعت رقعتها لتتصل بالأعظمية

والكاظمية من جهة الشمال، وبالشاطىء الشرقي من جهة الشرق، وبثنية نهر دجلة العظيمة من جهة الجنوب، وبالمطار المدني والضواحي القريبة مثل مدينتي المنصور والمأمون. وهناك ٧٦ حياً في الكرخ والرصافة و ٨ أحياء في الأعظمية، و ٤ في كَرَّدَ الشرقية و ٦ في الكاظمين. وكان عدد سكان مدينة بغداد ٤٦٦,٧٣٣ نسمة سنة ١٩٤٧، وقد ارتفع الرقم إلى ٧٣٥,٠٠٠ عند حلول عام ١٩٥٧.

وهجرت طرز البناء التقليدية وحلت محلها مبان على الطرز العصرية، في مناطق وراء المدينة القديمة، على حين تتغير الأقسام القديمة شيئاً فشيئاً. وقد زال جسر القوارب وشيدت أربع قناطر دائمة.

والأخذ بالأساليب العصرية، من الناحية المادية والاجتماعية، يسير بخطى أسرع من أن نحصيها هنا.

عبد العزيز الدوري

الفهرس